

# تَحْرِیض



قصص

سعد محمد رحيم

# مكتبة ماجد الحيدر

<https://www.facebook.com/pages/كتب-كتب-كتب>

تحرير 

---

الحقوق كافة  
محفوظة  
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني: E-mail :[unecriv@net.sy](mailto:unecriv@net.sy)

[aru@net.sy](mailto:aru@net.sy)

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>

□□

سعد محمد رحيم

# تحرير قصص .

من منشورات اتحاد الكتاب العرب  
دمشق - 2004



# المحطات

## 1. محطة الشروق

طلع الولد الأسمر من بين الأشجار المستكينة  
واختلاجة الصبح.. صدمه اللغط المنبعث من قلب الزحام  
فسرت القشعريرة في دمه الغض، والنور الخام ينثال..  
يغسل الأشكال، ويفضض نضارة ألوانها.. وقف متردداً،  
رافعاً نظريه إلى العقربين الأبنوسيين اللامعين في ساعة  
الحائط الكبيرة أعلى بناية المحطة.. لم يستطع أن يحدد  
الوقت، لكنه عرف أن القطار لم يأت بعد.

صاح به رجل:

- يا ولد.

تقدم بخطى متعثرة..

- بكم تبيع البسكويت؟

قال متلعثماً:

- بعشرة فلوس.

أخذ قطعة النقد المعدنية ورفعها إلى شفثيه وباسها، ثم  
ألصقها بجبينه العريض قبل أن يدسها في جيب دشداشته  
مثلما أوصته أمه.

أحاط به بعض الصبية.. كانوا أنيقين ونظيفين..

داروا حوله قبل أن ينطلقوا ضاحكين مزهوين.  
جلس على دكة إسمنتية محكوماً بالدهشة والوجل  
والذهول، واضعاً الصينية الصغيرة على فخذه الدقيقين،  
ومرسلاً عينين قافتين إلى الوجوه.. لفت نظره رجلٌ  
بسروال قصير، وسدارة كاكية في مقدمتها قرص معدني  
لأصفر.. سأل فتاة تصغره قليلاً اقتربت لتشتري منه :

- أهذا سائق القطار؟

- من؟.. هذا؟! يا لك من غبي.. هذا شرطي.  
تسمرت نظراته على الشرطي الذي أقبل نحوه..  
قبض على أعصابه الخوف وتنملت رجلاه..  
"عندما كان الظلام يختنق تهمس أمه في أذنه:  
- نم ، و إلا سيأتي الشرطي ويحبسك."  
وقف الشرطي عند رأسه مثل فزاعة هائلة:  
- ما أسمك؟

أمسكت بحنجرته غصة معذبة.. ضحك الشرطي  
والتقط علبة بسكويت وابتعد .. فارت الدموع بين صدغيه،  
وفكر أن يهرب.  
- " أين أبي؟

- موقوف في مركز الشرطة".

اختفى الشرطي خلف حاجز خشبي يتعامد مع بناية  
المحطة، وكانت الشمس قد ارتفعت.

استجار الولد الأسمر من لسعة القيظ بظل شجيرة  
يوكالبتوس يافعة.. أنزل صينية الأشياء على الأرض،  
ومسح العرق عن وجهه وجبينه بباطن كفه.. ارتفعت  
الشمس أكثر لتجفف ريقه.. ترى أين يوجد الماء؟ لمح  
صنبوراً غليظاً بمفتاح دائري أحمر.  
"قالت له أمه:

- في القطار هناك صنوبر ماء".  
أراد أن يجرب فتح صنوبر الماء غير أنه لم يجروء..  
جلس على الأرض.. مَدَّ يده متوجساً إلى جيبه ليتحسس  
قطع النقد.. انفرج فمه.. ربما ابتسم، شاعراً وكان كتلة  
هشة من الثلج قد نهشت في صدره:

- بكم .. البالون؟!

- بعشرة فلوس.

- سعره في السوق خمسة فلوس.

لم يحر جواباً .. أعطاه الرجل خمسة فلوس وأخذ  
بالوناً وراح ينفخ فيه .. كان الصبي الذي جاء بصحبته ينط  
حوله:

- البالون .. البالون.

- حسنٌ.. إنه ليس مثقوباً.

وَدَّ الولد الأسمر لو يستطيع قراءة الساعة، وكاد يسأل  
رجلاً عابراً عن الوقت لكنه تردد وظل صامتاً.

قال في دخيلته (عندما أكبر سأتعلم قراءة الساعة).

أحس أن بينه وبين هذه الزحام الجليل والألوان  
الضاحكة فراغاً هائلاً يعجز عن تخطيه.. هو لا يعرف  
أحداً في هذا المكان، ولا أحد يعرفه، وما يصله بهؤلاء هو  
أنهم جميعاً ينتظرون القطار.. ولكن أين هو القطار؟  
وكيف هو شكله؟.

" القطار شيء طويل ضخم يسير على السكة".



على حصان أصهب جاء شرطي يحمل حقيبة.. شدَّ اللجام وقفز، ثم ربط حصانه بالعارضة الحديدية للحديقة، وولج غرفةً كان بابها مفتوحاً. وبعد دقائق خرج وامتنى حصانه برشاقة وعاد في الطريق نفسها التي أتى منها.

فكر الولد الأسمر فيما إذا كان هناك كثيرٌ من الشرطة في هذا العالم. وكان قلبه يخفق بإيقاع عنيف، مكتوم. وعجب لأن أمه لم تخبره عن وجود الشرطة في المحطة.

" هو لم ير قطاراً قط، وأبوه قال:

- هذا الولد ينبغي أن يدخل المدرسة.. لن يكون بائعاً جوالاً بين المحطات مثل أبيه أبداً".

وحين أودع أبوه السجن، قالت أمه:

" - ستكون بائعاً جوالاً مثل أبيك".

وعاط القطار.. انبثق صوته المهول ليفتح عذرية طفولته.. اختضت أعضاؤه، وانبجست الرهبة من قرارته.. طفحت على سواد عينيه.. رفع الصينية... حاول الوقوف.. في البدء خذلته رجلاه.. حركهما.. حاصره الهدير - قعقة العجلات الخرافية على السكة النحيفة.

وجثم الهيكل العاتي المهيب، الملغز الذي سيقنتصه من حجر أمه ليصله بالدنيا.

"- سيجعلك القطار تخبر الحياة وتتعلم".

ويدا له القطار فاتناً.. في فتنته ما يبعث على الخوف. وكبيراً، أكبر مما تصورت مخيلته. وصارماً، وهو يخلل سكون الزحام.

هبطت وجوهه، وتسلفت سلالم العربات أجساد  
بسر اويل وشدائشات وثياب ملونة وعباءات سود.. لم  
يستطع أن يفكر بوضوح.. كان مقوداً تحت سطوة دافع  
خفي كأنه في دوامة حلم ثقيل.. تلفت حواليه .. وجد  
الشرطي الذي أخذ منه البسكويت واقفاً يراقب المسافرين.  
كانت أمه قد حذرتة:

"- لا تتأخر، فالقطار لا يلبث في المحطة أكثر من  
دقيقتين" ..

لم يقدر أن يتثبت من حقيقة مشاعره..  
أهو خائف أم لا؟! ... كان آخر الصاعدين وقد اشتد  
عليه عطشه.  
قالت أمه:

" اصعد القطار. وبعد محطتين انزل واصعد القطار  
المعاكس.. ستكون في البيت بعد الظهر".  
مشى في الممر بين المقاعد وعيناه تجوسان المكان..  
سمع أحدهم يناديه:  
- يا ولد.

نقل نظراته حائراً يبحث عن الرجل الذي ناداه.. إذ  
ذاك تحرك القطار إلى المجهول.

\*\*\*

## 2. محطة الشقائق

توقف القطار .. نزل الفتى المراهق.. كانت تلك أبعد  
محطة يصل إليها منذ خمس سنين.  
لبث واقفاً وهو يرسل نظراته الكاشفة في الأرجاء..  
لقد خبر محطات كثيرة... هندسة الأشياء هي ذاتها كما في  
كل مرة - النوافذ الخضراء، والعماربات الأبنوسية لساعة

الحائط الكبيرة، ومظلة الحارس، وحديقة الأراجيح - غير أن شيئاً ماء، هنا، كان مختلفاً.. مختلفاً تماماً.. حاول أن يلتقطه ويجدده فلم يستطع. وعندما تحرك القطار كان قريباً جداً منه.. أحس بأنفاسه اللاهثة وهو يدحرج عجلاته باتجاه محطة أخرى في أعماق أحلامه التي لم تنتضح أبعادها بعد.

ألقى نفسه في الدوامة اللطيفة التي أحدثها الهواء المخلخل في العربات الأخيرة وهي تسرع.. بقي ثابتاً إلا خصلات شعره الطويل التي اهتزت لتسقط على عينيه.. أزاحها وعبر التقاطعات المعقدة للسكك إلى الجهة الثانية...

سأل فتاةً تجلس على دكة إسمنتية.. عيناها واسعتان مثل الساعة التي يحلم في شرائها:

- أين نحن؟

كركرت الفتاة بعذوبة.. بتلك العذوبة التي ليس بمقدور أمثاله تحملها، وقالت:

- في هذه الدنيا.

تولاه الخجل.. خجل كاسح صعد دماً غزيراً إلى وجنتيه السمراوين، أحاق ثمة بحب الشباب وألبيه.

رفع نظره عن الفتاة، وتملى السهل، المعشوشب المتوغل حتى أخدود بعيد.. أدهشته كثافة الشقائق بكووسها الصغيرة الحمر وهي تتمايل بين نباتات الخبيز..

قال:

- ما أجملها من أزهار.

كانت تحدجه بإشفاق.. قالت:

- ماذا تباع؟

- ها...؟

حرر رقبتيه من الحزام الجلدي وأنزل صندوق بضاعته.

- بكم قطعة العلك؟

- خذي واحدة.

ومنذ تلك اللحظة.. مذراح يراقب حنكها وهي تلوك العلك بغنج، تكسرت في قاع نفسه قشرة متقرنة، وتفجر بخار حيوي ساخن ومدوخ سيغلّق خرائب ذاكرته حتى وقت طويل.. طويل..

قالت: ماذا دهاك؟

قال: ماذا تفعلين هنا؟

قالت: لم يأت أبي بعد.

قال: أبي مات في السنة الماضية، بعد أسبوع من خروجه من السجن.

\*\*\*

في تلك الليلة استلقى الفتى المراهق بلا غطاء.. المقعد الخشبي الطويل هيّج أحلامه.. كان برداناً ويقظاً، ولا أحد غيره في قاعة انتظار المحطة.

ظل يحدق في الفراغ المعتم. ومن هناك انسل طيف تمارا الدفائي.. كان قريباً وقصياً في أن معاً.. غامضاً وساحراً ولا معقولاً مسّ برفق كينونته. أو ذلك الجزء العسير على السبر من كينونته.

" كانا يأكلان البسكويت حين جاء أبوها بالعربة المحملة بقناني الـ"بيبي كولا" .. رمقه الشيخ بارتياح، ولم يقل شيئاً.. قالت، وهي تناوله قنينة مثلجة.

- اشرب .. الـ"بيبي" مقابل العلك والبسكويت.

تحاشى نظرات الشيخ المستفهمة الذي فضل الصمت، وشرّب السائل البارد اللاذع بمتعة..

قال : سأنام الليلة في المحطة.

قالت: أنت أحمق.. ستموت من البرد.

لا يدري متى نام.. أيقظه قطار الفجر.. رأى آخر  
المسافرين وهو يدوب في الظلمة الشفيفة .. قال لحارس  
المحطة:

- سأتي بعد قليل.. صندوقي معك.

وقبل أن يعترض الحارس احتواه الممر المترب بين  
الشقائق ليمضي حتى حافة الأخدود البعيد.

وقف يتأمل النهر الصغير في القاع، والنور يشهق..  
رمى حجراً، مسخراً قوته كلها، غير أنه لم يصل إلى  
الماء... قال:

- إنه بعيد.. بعيد.

وقفل راجعاً..

كان الشيخ هناك، أمام عربته.. ودَّ لو يسأله عن  
تمارا.. كان ذلك مستحيلاً، بيد أنه لم يسأل نفسه لِمَ كان  
ذلك مستحيلاً.. انكفاً في الجهة المقابلة وانتظر..

جاء القطار ولم تجيء تمارا، وكان عليه أن يحمل  
صندوقه ويعود، فأمه - لا شك - قلقة عليه الآن.

\*\*\*

بعد ساعة قضاها في الحمام، خرج تحيطه سحابة من  
بهاء غمرته بالسرور وهو يواجه المرأة، قال.

- قد لا أستقل القطار النازل ليلاً فلا تقلقي.

قالت : أخشى...

قال: ماذا؟

قالت: لا شيء.

وكانت أمه حائرة.. بحثت عمّا يمكن أن يُقال، ولكن  
الفتى المراهق تركها وهي ما تزال في حيرتها تبحث عمّا  
يمكن أن يُقال.

وصل محطة أشواقه عصراً، مضطرباً، متألّفاً.. وجد

الشيخ يفتح قناني المشروبات.. خيل إليه أن الشيخ لمحّه،  
غير أنه تساعل عنه بتأنيّة طلبات المسافرين المزدحمين  
حوله.. تساعل عما إذا كان الشيخ حانقاً، أو حاقداً عليه.  
- ها قد جئت ثانية.

فوجئ وارتبك ولم يلتفت .. كانت وراءه، وكان هو  
مأخوذاً وهشاً. وشعر بجسمه مثل كتلة من رمد، وبقيت  
أصابعه وحدها محتفظة بالقوة، تضغط على أطراف  
الصندوق المعلق برقبته بلا طائل، وهي الطرية الطازجة  
حد الذهول .. كانت تضحك حين نطت مقتحمة قوس  
ناظره..

- لماذا لا تصيح على بضاعتك؟

لم يأبه لسخريتها.. كان فقط يتعذب لأنها فاتنة  
وعصية.. كانت في مكان ما خارج حدوده، وكان يحدث  
أنه لن يعرف الطريق إليها أبداً.  
- لماذا لا تساعدين أبا...  
الحرف الأخير تلاشى في هباء توفه، وضحكت ..

ضحكت:

- أنا حرة.

وتمنى لو كان هو الآخر حراً مثلها.. على الأقل ساعة  
واحدة يقول خلالها ما يشاء.  
- أريد قطعة علك.

أخذت قطعة علك قبل أن ينطق هو.. هو لم ينطق..  
صاح الشيخ:

- تمارا..

- حالاً بابا..

وقبل أن تلحق بأبيها الذي راح يدفع عربته ميتعداً،  
حدقت في عيني الفتى المراهق، وأخرجت له لسانها

وقالت:

- أنت أحمق ومسكين.

تطابير شعرها الطويل وهي تركض.. تتقاذف في ركضها .. وكان هو يائساً ومستفزاً.. ينظر إلى جسدها الأسر المتموج ولا يريم.

\*\*

في كل مرة يقرر العودة إليها تقول له أمه:  
- حذار.

بيد أن حافظاً قديراً قاهرأً بوجهه إلى تلك المحطة الواقعة على نقطة اعتباطية من امتدادات غربته، لأن تمارا بهياج وجاذبية حضورها ربما تنتظر أسفة.. هكذا يحشد الفتى المراهق مسوغات قناعته أو أوامره، ويستقل القطار الصاعد إلى جهة الشقائق الريفية المتمنعة في عينيها. وكانت هي تلعب .. تدنو ليتراجع هو إلى ذاته القصية ضئيلاً، محملاً بالهم والخيبة والتساؤلات. وتفر تاركة إياه مطوحاً في قرارة عجزه وحرمانه.

ذات ظهيرة، وسائل كالح حارق ينز في أحشائه هبط من قطاره .. وقف يدير رأسه في الأثناء "أين تمارا؟" .. بعد ساعة تحت الشمس المشتعلة رأها، إلا أن قطار الوقود سرعان ما غيبتها .. كانت في الطرف الآخر تضحك، ومن بين الفجوات التي تتركها عربات البترول المتعاقبة راح يعاينها .. كانت تختفي خلف كتلة مرعبة من نار في الكمون ثم تظهر كأنها كائنة في عالم مغاير أكثر صحواً وغموضاً لتختفي كرة أخرى.. وهكذا.. يسير القطار ويبدأ، يجر جر عرباته الملطخة بالسواد وهي تظهر وتختفي .

وعندما انزاح القطار عن نطاق رؤيته كانت ما تزال تضحك.

اقترب منها وقال:  
كيف حالك تمار؟  
تلاشت ضحكتها، وحلقت بنظرتها في فضاء وجهه  
الطفولي.

- كم عمرك؟

سألته ، فأجابها ببراءة:

- خمسة عشر عاماً.

لوت رأسها فتساقط شعرها الوفير على كتفها،  
وانحدر حتى مرتقى النهدي الأيسر إذ يضغط مع قرينه على  
ثوبها السماوي الهفاهف وفغرت فاهها.

- خمسة عشر عاماً !! اسم الله عليك.

وضجت بالكركرة.

- أندري كم هو عمري أيها الشقي؟ اثنتان وعشرون  
سنة.

ولطمته على كتفه وراحت تجري.

أيقن أنه وحيد في الشرك، والدنيا تتقوض حوله، وهي  
تنأى بقوة نزقها إلى ما وراء مجاله الرملي المقفر.

اقترب منه حارس المحطة وقال:

- مجنون أنت إن كنت تفكر بها.

بوغت، فحرك رأسه بلا معنى.

- مجنون من يعشق امرأة مجنونة.

أنزل صندوقه وتركه على الأرض، ومشى متمهلاً في  
الجوار.. راعه أن يجد أزهار الشقائق ذابلة، والأعشاب  
مداهمه بالأصفرار.

دخل المرحاض وهو قانط، وخرج يرشح عرقاً.. كان  
دبقاً ومستنزفاً فهناك، بين الجدران النتنة المسودة  
بالكتابات البذيئة استحضر جسداً تماراً في مخيلته..



استحضره حاراً هائجاً ومتطلباً، وكان يحاول أن يرد لنفسه اعتبارها .. هكذا!..

وفي الليل ركب القطار النازل وهو مترع بالبكاء.

\*\*\*

### 3. محطة الرغبة:

الريخُ لاذعة، والأفق أحمرٌ متوهج، والغيوم تتفرق وتلتحم. أما خطوط السكة الحديد فتشكل محيرٌ لم يستطع الرجل النحيل - البائع الجوال في القطارات - فهم تشابكها منذ عشرين سنة.

إنه ينتظر كالعادة.. قال لحارس المحطة:

- أنا دائماً انتظر.

قال الحارس:

- كلنا ننتظر .. من لا ينتظر شيئاً ينتظر الموت. أما الموتى فينتظرون يوم الحساب.

وعندما أطلق القطار زفرته الأخيرة كان هو ضجرأً مضطرباً بعد أن تمدد على ظهره طوال ساعتين بعينين مفتوحتين في قاعة انتظار المحطة.

وكان يهيم بالصعود حاملاً صندوقه الفارغ حينما هبطت هي.. كانت تحمل أشياء كثيرة.. أكياس وعلب ومجلات.. التقت عيونهما .. قالت وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد:

- أحمل عني.

لم يتردد .. حمل في صندوقه أشياءها وتبعها.

كان الأفق يزداد احمراراً حين عوى القطار ومضى.

في تلك الليلة خبر الرجل النحيل طعم الأنتى للمرة الأولى .. كان متوتراً، وكانت هائلة.

في البدء طلب كأس ماء.. دعتة للدخول.  
- كما ترى، أنا وحيدة.

وبعد ساعة عرضت عليه أن يعمل عندها فوافق من دون أن يعرف أي عمل تريده أن يقوم به.

أعدت طعام العشاء.. الأطباق كلها كان فيها لحم.. أكل بنهم وهي تراقبه، وإذ ذلك سقط مطر غزير وانقطع التيار الكهربائي.. راحت تتلمس في الظلام.. أحس بانفاسها قريبة منه وكاوية، ولمّا دوى الرعد طوقته بذراعيها العاريتين.

همست: أنا خائفة.

وكان هو خائفاً.. أي شيطان وأية متاهة؟ قادتة في الظلام إلى غرفة النوم.. كانت تعرف الطريق، وكان هو كالأعمى.. وبقي المطر ينهمر طوال الليل.

\*\*

لم يجروا أن يسألها من أين يأتيها هذا المال كله؟  
.. كانت محصنة ومنبوعة ضد الأسئلة.. حمل فأساً - وهو الذي لم يحمل فأساً إلا في النادر - ليشذب لها أشجار الحديقة الخلفية لبيتها الفاره.. كانت أشبه ما تكون بالغابة، وقد أصيب برضوض، وكاد يقطع أصابعه.

بعد أسبوع أحس أن الهشيم الأسود في دخيلته قد احترق، وأن الدم الفاسد قد خرج منه، وأن للحياة مذاقاً عجيباً لم يجربه من قبل.

فكر أنه شيء كالحلم.. قال في سره؛ "إن هذه هي السعادة، ولا يمكن للمرء أن يمّني النفس بعيش أعظم من هذا".

كان مشيعاً ومفتوناً ولحظاته ممثلة.. يطارد توجسه ليواريه.. توجسه من أنها ربما طلبت منه أن يغادر جنتها.. الخيط العكر الوحيد في فضائه المصقى.

تولاه شعور، كما لو أنه أُنتشل من فراغ.. من سديم الجفاف.. من الطريق الجرداء المستقيمة التي لا تؤدي إلا إلى الموت مباشرة.. أدرك أنه دخل منطقة اللامعقول حيث العذوبة والخمول اللذيذ والرواء والرضا.

وكلما صعد تفكيره هكذا ليحتوي هذا العالم البكر السعيد الرائق الذي ولجه بالمصادفة أو بالحظ الذي لا يستيقظ سوى مرة واحدة في العمر، تردد نداء معذب من ركن خفي في عقله من أن صيرورته العظيمة هذه ليست منطقية، وليست مسوغة، ولا يمكن أن تكون إلا وهماً مؤقتاً سيتبدد حتماً نتيجة زلزال سيقع، لا محالة، في أية لحظة.

وَدَّ لو يقبض على لحظته الكائنة، وأن يتشرنق داخلها، وأن يثبتها، أو يجعلها تمضي هكذا، حارة، مشبعة، مكتفية بذاتها، وأزلية.. خارج الزمن، خارج المنطق، خارج المعقول.. فوق الكينونة، وفوق الحلم وفوق الوجود.

\*\*

قالت له: تكلم.

قال: عمّ؟

قالت: عن النساء.

قال: أمي ماتت السنة الماضية.

قالت: لا أحب التحدث عن الموتى.

قال: عمّن أتحدث إذن.

قالت: كم أنت بريء؟

لم يفهم.. اتسع بياض عينيه فأطرق وكان حائراً، وأخذت المرأة تدخن، ثم قامت لتجلب القنينة ذات السائل الأحمر.. صببت منها في كأس وناولته:

- اشرب .

- لم احتمل طعمه في المرة السابقة .

- أمك ماتت مبكرة .. أتساءل إن كانت فطمتك؟

استشعر نبرة السخرية في صوتها فامتلاً بالمهانة والقلق .. لكأنها ملته ولم تعد بحاجة إليه .. شبعت منه وستلقيه عاجلاً إلى عرض الطريق .. هذا الخاطر المداهم جعله ينتزع الكأس من يدها، ويفرع السائل الحارق في جوفه .

قالت بتهكم:

- أنت تثير الشفقة والضحك .

لم يفهم .. كرع كأساً أخرى .. كان يقاوم حرجه

وإحساسه بالمهانة والقلق بتناول الشراب .

الكأس الرابعة أيقظت فيه جنية لم يعهدها من قبل، وأبى أن يقرب الكأس الخامسة على الرغم من إلحاحها .

ولما عجزت عن إقناعه استلقت على السرير .. ثنت إحدى ساقيها فتراجع الثوب الوردي القصير الشفاف إلى ما فوق الركبة وراح ينزلق حتى تفجر البياض المشرب بدم النشوة .. ضجت الفاكهة المحتمة، الملفوفة بقوة الرغبة وهي تتكشف رويداً رويداً بجلالها وجبروتها وتهورها واستنقزازيتها، حتى أحس وهو الجالس قبالتها مثل كاهن ذليل بأن الهواء الذي بينهما سيلتهب .. وسيكون الحريق ..

كانت ترمقه باغراء لا يُرد، ثم بدأت تضحك .. استغرقها الضحك طويلاً .. وكانت تضحك حين احتضنها .. صفعته .. تسمر ذاهلاً قبل أن يصفعها هو أيضاً .. قامت وعيناها تتأججان .. صفعها ثانية .. انقلبت على ظهرها .. كان هائجاً .. مزق ثوبها فبان كل شيء، وكانت تصارع .

- أنت كلب .

- أنتِ عاهرة.  
وفي لحظة أدرك أنه مجنون، غير أنَّ عليه أن يصل  
بجنونه إلى الذروة، وإلا ما الفائدة؟  
وأخيراً ارتعش بقوة نافضاً بقايا آماله على حواف  
غورها اللاهب.. كان يلهث، وكانت تفح عندما تركها  
وتراجع إلى الوراء.  
- أخرج قبل أن استدعي الشرطة.  
وكان عليه أن يذعن ويغادر..  
دخل جوف الظلمة وهو يفكر؛ " لماذا حصل كل هذا  
الذي حصل؟ "

ولم يفهم.. كانت الريح تهب بعنف، وكان من العسير  
عليه تحديد اتجاهها.. لم يكن ذلك هاماً.. كان هاجسه أن  
يلحق بقطار الفجر فأسرع يحث خطاه، متخذاً طريقاً  
مدلهمته وما كان متأكداً من أنها الطريق التي ستوصله إلى  
المحطة.

\*\*\*

#### 4. محطة الثلج.

تطلع الرجل الكهل من النافذة وصاح:  
- ياه ..  
انتبهت المرأة العجوز وتوقفت عن قضم كسرة الخبز  
التي في يدها .. التفت إليها وقال:  
- تعالي، انظري.  
- ماذا؟  
- الثلج.  
- الثلج؟!!

ندف الثلج كانت تهبط على الأشجار وخطوط السكة الحديد وكوخ الحارس.. تغطي على رسلها مدى الرؤية.. المرأة العجوز المتوحدة مطت شفقتها ولم تتزحزح عن مقعدها، وعاودت قضم كسرة الخبز.

الرجل الكهل بدا منتشياً، وساورته الرغبة في أن يخرج ويمشي تحت الثلج.

- بعد قليل لن يُطاق البرد.

قالت المرأة العجوز ذلك كأنها تُحادث نفسها.

- الجو دافئ.

- يبدو أنك غريب هنا.. ألدك قرص أسيرين؟

- أشعرين بالصداع؟

- سأشعر بالصداع عمّا قريب.

أخرج حبتي أسيرين من علبة خضراء، وناولها للمرأة العجوز وعاد إلى النافذة.

- بكم؟

- مجاناً.

ضحكت المرأة العجوز ولم تعلق.

كف الثلج.. شعر الرجل الكهل بالأسى والصفاء..

شهق بصوت مسموع وجلس.

- أيسقط الثلج هنا، دائماً؟

- ألم تأتِ إلى هذه المحطة من قبل؟

- جئتها ذات مرة.. كان ذلك قبل سنوات طويلة، ولم

يكن الثلج يسقط.

دخل قاعة انتظار المحطة ثلاثة جنود ببدلات

الميدان.. اثنان راحا يقهقهان، وكان الثالث مستاءً.

اقترب الجندي المستاء من الرجل الكهل.

- أعندك سجائر؟

- عندي.

انزوى الجنود الثلاثة في الطرف الآخر من قاعة انتظار المحطة وجعلوا يتحدثون ويدخنون. وضعت المرأة العجوز حبة أسبرين على لسانها، وبلعتها.

- تعودت بلعها من دون ماء.

لم ينبس الرجل الكهل. وفجأة صمّت الجنود الثلاثة عندما دلفت إلى القاعة امرأة شابة تحمل حقيبة كبيرة.. أخرج الرجل الكهل جهاز مذياع صغير من جيب سترته ليستمع إلى نشرة الأخبار.. وقفت المرأة الشابة تنفض عن قمصاتها الجلدية ما علق بها من قطرات الماء التي هي من بقايا ندف الثلج.. سألتها المرأة العجوز:

- كيف هو الطقس في الخارج؟

هزت المرأة الشابة رأسها وقالت:

- البرد يخترق العظم.

دنا الرجل الكهل من المرأة الشابة وهمس:

- عندي أشياء مهربة.

- ماذا؟!.

- قمصان ومواد تجميل وملابس داخلية.

- أراها.

تلقت الرجل الكهل حوالياه ثم جلس وفتح كيساً كان في صندوقه.

- بكم أحمر الشفاه؟

حرك إصبعي السبابة والوسطى.. التقطت المرأة الشابة قلم أحمر الشفاه من داخل الكيس ودسته في حقبيتها اليدوية، وأخرجت دينارين أعطتهما للرجل الكهل.

كركرت المرأة العجوز وقالت:  
- الظاهر، أنك خطير.  
انزعج الرجل الكهل وقام لينظر من النافذة .. جاءت  
المرأة العجوز ووقفت إلى جانبه.  
- أزعلت؟  
- أنت ثرثارة.  
- كنتُ أمزح.  
- تتدخلين في ما لا يعنك.  
- أنا وحيدة وأحتاج إلى من أتحدث إليه.  
- عذر سخي.  
- يا رجل.  
بغنة امتلأ بشعور بالشفقة، وكان يحدق إلى الأشجار  
العارية وهي تهتز تحت السماء المكفهرة.  
- حقاً، الوحدة تجعلنا غريبي الأطوار.  
- أليست لك زوجة؟  
لم يرد.  
- أماتت؟ .. أنا آسفة.  
- ستكون ليلة باردة.  
- لقد تأخر القطار.  
- لم يأت في مواعده قط.  
عاد الجنود إلى صخبهم. ولما استدار الرجل الكهل  
رأى عدداً آخر منهم.. قال:  
- لولا الجنود لبقيت القطارات فارغة.  
ران الصمت عندما تناهى صفير القطار.  
قالت المرأة العجوز:



- سيسقط الثلج ثانية.  
قال الرجل الكهل:  
- ليسقط.

\*\*\*

## 5. محطة الغياب.

سعل الرجل الهرم حتى دمعت عيناه فتهيأ له أنه سيختنق.. حينئذ اختفى القطار الذي أتى به في متاهة الغروب والغبار.

لا يدري ما الذي دعاه إلى النزول في هذه المحطة.. ربما هو الضجر، أو التعب بعد السفر الطويل. ولكن لماذا هذه المحطة دون غيرها من المحطات التي مرَّ بها؟ فهذه المحطة لم تكن له فيها ذكرياتٍ راسخة، ولا يعرف من عمالها وموظفيها وشرطتها أحداً.

بناية المحطة القديمة متسرّبة بأولى أستار الظلام، وظن أنهم نسوا إشعال المصابيح. ورأى أن الجانب الأيسر من البناية مهدم.

مشى بتؤدة وهو يحمل صندوقه. ولم يكن قد لمح أحداً بعد.. عثرت قدمه بكومة من الأحجار، وكاد يسقط.

رغب في أن يتأكد من الوقت.. رفع رأسه.. كانت ساعة الحائط الكبيرة بلا عقارب. وفي الرواق تهشمت تحت حدائه المتهرئ قطعة من الزجاج، ثم وجد نفسه يسير على كسر من الزجاج. وبعسر استطاع أن يميّز منفذاً فدخل مكاناً يفترض أن يكون قاعة انتظار للمسافرين.. فاجأه صوت خافت ينبعث من زاوية في الجهة الأخرى من القاعة راسماً شكلاً هلامياً رجراجاً على الحائط.

تقدم - وقد إطمأن قليلاً - ناحية الضوء.. لقي باباً

نصف موارب، دفعه فصُعق.. كان ثمة رجل أشعت بوجه  
هضيم جاف يتكور على بساط عتيق، في غرفة صغيرة  
ملحقة بالقاعة، وهو يرتجف.

- السلام عليكم.

لم يرد الرجل الأشعث.. مدَّ رأسه ثم أخذ يصيح.

- من ... من أنت؟!!

جمد الرجل الهرم في وقفته، وقال:

- ما بك؟

- رُح.. رُح.

- أين الآخرون.

- راحوا.. ما الذي جاء بك؟!.. رُح.

- أين راحوا؟

خرق سكون الليل عواء مديد.. همس الرجل الأشعث  
بذعر.. همسه كان كالصفير.

- الذئاب.

- لا تخف.. إنه ابن أوى جائع.. حيوان مسكين يخاف  
من ظله..

دهم السعال الرجل الهرم ثانية فجلس على البساط إلى  
جانب الرجل الأشعث، واضعاً صندوق بضاعته أمامه.

هزَّ الرجل الأشعث رأسه دلالة الاطمئنان وقال  
بصوت معتل:

- بائع جوال أنت؟

- كما ترى.

ما الذي أوصلك إلى هنا؟

- القطار.

- القطار؟! أي قطار؟! القطارات لا تصل هذه

المحطة.. منذ أشهر لم يصل أي قطار!  
- كيف؟.. أنا جئت بالقطار..  
- لا.. لا.. وهم.  
- وهم؟!  
شعر الرجل الهرم بالدوار.. أنعم النظر إلى الرجل  
الأشعث.. إلى عينيه الداميتين، وبشرته اليابسة وفوضى  
لحيته، وسأل:  
- أين هم موظفو المحطة، والعمال؟  
- أنا الحارس.  
- وماذا تحرس؟  
- قالوا ابق احرس.. لا أحد يأتي.  
- لا أحد.  
- إلا ولد أسمر.  
- من هو؟  
- لا أدري.. يجلب أحياناً الطعام.  
- لماذا لا تغادر.  
- قالوا لي ابق احرس، أنت المسؤول.  
- تبدو مريضاً، ومريضاً جداً.  
أغمض الحارس عينيه.. اقترب منه الرجل الهرم  
وأمسكه من معصمه.  
- حرارتك مرتفعة.  
يبحث في صندوقه، ومن كيس نايلون صغير أخرج  
قرصاً أبيض وسأل عن الماء.. أشار الحارس إلى صفيحة  
صدئة.  
أعطى الرجل الهرم الحارس القرص الأبيض وقال:  
- ابلع.

- لا فائدة.

انكفأ الحارس وانكشمت أساريه حتى بدا وكأنه في  
غيوبة.. قال الرجل الهرم.

- أنت؟

لم يلق جواباً.. قرّب الصفيحة الصدئة من فمه.. كان  
في قعرها قليل من الماء.. هجمت على خياشيمه رائحة  
زنخة بيد أن العطش جعله يشرب، وكاد يتقيأ.. وفجأة راح  
الحارس يريل.. بعد ذلك أطلق صوتاً واهناً كان يتصاعد  
ثم يضعف، واستحال بعد حين إلى هدير أجش، متصل  
وغازب، أشبه ما يكون بهدير طائرات تقترب ثم تبتعد..  
وأخيراً صرخ:

- لا.. لا.. لا..

صرخته كانت متحشجة، ثم صار يختض.. ضربه  
الرجل الهرم برفق على كتفه:

- استيقظ.. لا بد أنت يكون كابوساً.

دعك الحارس عينيه وهو يتأوه.

- لم البناية مهدمة؟

- أسمع الريح؟

- الريح ستزيد الغبار.

- الغبار في صدري.

- أنت بحاجة إلى طبيب.

- قالت؛ ستموت وحيداً، منسياً.

- من؟

- أسمع الريح؟

سقط الحارس على جنبه، راجعاً إلى مدار نومه أو  
غيوبته، واستلقى الرجل الهرم على البلاط.. لم يكن  
باستطاعته أن يغفو كما كان يتمنى، وبعد نصف ساعة -

أقل أو أكثر قليلاً - انتفض الحارس، وتسارعت أنفاسه.  
أعانه الرجل الهرم ليتمدد على ظهره.  
- أليست هنا بيوت قريبة؟  
- كلهم رحلوا..  
كان صوته الآن أكثر وهناً.. مشروخاً ومؤسباً.  
- والولد الأسمر؟  
- لا أدري.. قال أن أهله لم يغادروا.. لعلهم لم يغادروا.  
- ومتى سيأتي؟  
- لا أدري.....  
من أحشاء الليل انبعث العواء ثانية.. كان أشد وضوحاً هذه المرة، وأعمق شكوى وعناداً.  
- الذئب.. الذئب..  
- لا تخف.. قلت لك إنه ابن أوى.  
- الذي الذي.....  
تبدد صوت الحارس في الفضاء الشبهي المصمت،  
وتقبض إيقاع تنفسه، وتناثرت من فمه كلمات خافتة النبرة  
بلا مخارج دالة، لكنها شاكية، تحولت بعد حين إلى هذيان  
رتيب، ثم إلى هدير.. هدير طائرات بعيدة، وبغثة انتفض  
وسكن.  
حسب الرجل الهرم أن الحارس قد نام. ولما عاود  
الحيوان الليلي عواءه الفاجع المرير كرهة أخرى اكتشف  
الرجل الهرم أن الحارس قد مات.  
انقضت دقائق قليلة، كان الرجل الهرم خلالها هادئاً،  
تمرق في دمه عربات الحزن.. كان حزناً حدّ النقاء،  
وألفى دموعه تجري، وتذكر أنه لم يبك منذ زمن بعيد.  
قام متباطئاً وفتح النافذة.. ريح الصحراء كانت تهب،

وامتلأت الغرفة برائحة الغبار.. خرج إلى قاعة الانتظار حاملاً الفانوس بعد أن أغلق باب الغرفة خشية أن يدخل حيوان ما ويلتهم الجثة.. كان هناك حطام مقاعد خشبية، ونثار من الزجاج والطابوق.. وعبر المنفذ إلى الرواق حيث أبصر باب القاعة في الضوء الشحيح مخلوعاً ومحطماً وملقى إلى جانب عمود معدني معوج..

مشى إلى الجهة الأخرى.. طالعه أشجار الكالبتوس والصفصاف اليابسة.. خطر له أنها ماتت عطشاً.. فكر أن يبحث عن الأراجيح في الحديقة المجاورة لبنائية المحطة.. كان يعرف أن في كل محطة ثمة أراجيح. ولا يدري لم جعل يفكر بالأراجيح وهو الذي خرج باحثاً عن معول ليدفن جثة الحارس..

لم يعثر على الأراجيح، غير أنه بعد مدة - ربما طالت - ميّز معولاً تحت ركام من السلاسل الحديد.

أمضى بضع ساعات وهو يحفر، والرياح تمرر أصابعها الخشنة بين أطرافه المبتلة بالعرق لتتشفها. وكان منهكاً تماماً وجدّ عطشان، وانطفأ الفانوس، غير أن عينيه ألفتا العتمة تحت أنفاس النجوم. ولأمّ عقله لأنه لم يتذكر صنوبر الماء الذي لا بد أن يكون في مكانه المعتاد كما في المحطات كلها، والتي عاش حياته متنقلاً في ما بينها.. سيسرب ويغسل الجثة. لكن الصنوبر الذي كان حقاً في مكانه المعتاد لم يُنزل قطرة واحدة فعاد تنتابه مشاعر الخيبة والوحشة والفقدان.. ماذا لو أن الحارس كان صادقاً، وأن القطارت لن تمر بهذه المحطة أبداً؟

وحيره السؤال: كيف جاء؟ وبدا أنه غير واثق من ذاكرته.. أية رحلة غريبة هذه التي قام بها؟ وخيل إليه أنه رأى حيوانات تصطف في أفق الظلمة تتربص، لذا أرجأ سحب الجثة ودفنها لئلا تُهاجم وتُفترس.

وقال لنفسه: عندما ينبالج الصبح ستهرب بنات أوى.

ولا يدري ما الذي جعله يعتقد أنها بنات آوى، بينما كان  
من الممكن أن تكون ذئاباً، كما راح يتوجس.  
لم يأبه كثيراً إلا أنه ظل ممسكاً بالمعول. وطلع قمر  
مبتور مجدر تتخلله عروق دامية زاد من إحساسه  
بالتوحد.. وتخيل الولد الأسمر رشيقاً طويلاً يقبل من بين  
الأشجار المستكينة واختلاجة الفجر، يعينه في دفن الجنة،  
ويمضي به إلى حيث المدن والمحطات المزدهمة..  
أخذت بنات آوى تعوي، وانفجر هو بسعال جاف..  
ممزق.. وعلى حافة القبر، فوق كومة التراب الهش  
الطري، والريح تشتد، جلس ينتظر.  
بعقوبة/1993

٤٤٤

## بيت العناكب

﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾

(العنكبوت، آية 41)

### .1.

كان الفيضان جامحاً إلى الحد الذي ألقى بمحتويات البيت الكبير ذاته إلى العراء بعد زمن طويل طويل من الانغلاق والتستر المريب خلف باب خشبي عملاق وسياج عال من الطابوق السلطاني الأحمر، فتلك الشرقة الحجرية المهولة انهارت أركانها لتكشف عن عناكب الوهم التي كانت تسرح في الداخل منذ ملايين السنين كما أظن، أو منذ قرن من الزمان أو أكثر، أو ربما أقل كما يدّعي بعض الناس ومنهم أبي، فاذاً ذلك أيقنا أن خدعة أخرى بل أكثر الخدع فظاعة قد تبددت بفعل قوة جبارة اجتاحت بلدتنا المستكينة، من دون توقع، في ليلة لم تكن هادئة.. أجل، إلا أنها لم تنبئ بوضوح عن المفاجأة المذهلة التي حصلت، فطلّاع الغيم الآتية من جهة الغرب عصراً كانت تحمل رائحة مطر غزير سينهمر، ويبدو أن الدفاعات



الجرارة من الغيوم قد أعقبت ذلك بعد هبوط الظلام ليتأزر معها ذلك المد العظيم من المياه التي حملها النهر من الشمال البعيد، ولا أظن أن الأمر كان محض مصادفة.. استيقظنا أنا وزوجتي على أثر الصرخات الفاجعة المنبعثة من البيوت القريبة.

- ما الذي يحدث؟

- وما أدراكي؟. كنا نياماً كأهل الكهف..

كان الظلام كثيفاً.

- ترى لماذا قطعوا التيار الكهربائي؟

- أنت تسألين أسئلة لا معنى لها.

خرجت من الفراش الدافئ أتحسس طريقي في العتمة بحثاً عن الفانوس الذي لم أكن أتذكر أين يمكن أن يكون الآن.. سألت زوجتي فقالت إنها لا تعلم.. عثرت على علبة كبريت وأشعلت عود ثقاب وتمكنت من فتح باب الغرفة والخروج إلى الباحة، وعندما خطوت الخطوة الأولى غمر الماء رجلي حتى الكعب، وكان المطر يسقط بغزارة لم أعدها من قبل.

تعالت الصرخات ثانية.. ظننت للوهلة الأولى أن مسناً آخر قد مات، ففي الأسبوع الفائت كان قد مات ثلاثة منهم.. إنهم يستدعون بعضهم بعضاً.. قلت أن هذا الرجل (أو هذه العجوز) سيء الحظ لأنه مات في ساعة كهذه، ولكنني انتبهت إلى أن الصرخات تنطلق من جهات عديدة.. دخلت المطبخ، وبعد لحظات وجدت الفانوس وأشعلته.. سرت نحو الباب الخارجي وهناك وقفت مصعوقاً.. كان الماء يتدفق بشكل مروع من أسفل الباب الذي كان على وشك التداعي.. رجعت إلى زوجتي راکضاً.

- قومي أيتها الخائبة.. إنه الفيضان.

لا أدري كيف خطفت جسدها من على السرير بتلك السرعة وألقته بين ذراعي حتى كاد الفانوس يفلت من بين أصابعي.. قلت:

- رويدك فالماء لم يصلنا تماماً.

طلبت منها أن ترتدي معطفاً ثخيناً وفعلت مثلها.. أخذت ساعتى ومحفظتي التي لا تحوي سوى بضعة دنانير، وحملت هي صرة صغيرة وضعت فيها قطعاً من الملابس وشيئاً من الخبز والتمر اليابس، ودست بقرطبيها الذهبيين وسوارها الذهبي النحيف في جيبيها وخرجنا.

في الباحة كان مستوى المياه قد ارتفع، وكان الباب الخارجي يهتز مقاوماً قوة دفع الأمواج، وحين فتحته بحذر واجهتنا رشقة هائلة ولكننا اخترقناها فصرنا في الزقاق، وكان المطر قد توقف فحمدت الله.. الناس يأتون فرادى وجماعات يسبقهم لغطهم وصرائحهم الخائف متجهين نحو منطقة التلال في الشرق.

ألقيت نظرة على شبح البيت/ بيتي في العتمة.. نظرة أخيرة - إذ كنت أعلم أنها الأخيرة - نظرة مؤسسية، وشعرت بالانقباض.. لا جدوى من البقاء إذ لا أحد بإمكانه الآن إيقاف الزحف العنيف الحر للمياه المنفلتة.

قال أحدهم أن البساتين غرقت وأن رؤوس النخيل وحدها تلوح فوق المياه في تلك الأرض المنخفضة عند كتف النهر. وخطر لي أن ألتفت نحو البيت الكبير.. البيت القديم.. كان ما يزال صامداً ببوابته الكبيرة وسياجه الصلب وشرفاته المعقوفة الثلاث... خيل إلي أنني رأيته في الشرفة الوسطى.. واقفاً وحده.. الرجل الهرم.. بيك العصور المنقرضة، مثل خيال المائة، يتأمل المياه ببرود.. أستطيع أن أقول: ببرود.. شكل وقفته كان يوحي بذلك.. سحبنتي زوجتي من يدي.. راحت الفوانيس تتقارب في درب الهروب نشدانا للأمان، وللغذاء من أن المصيبة قد

طالت الجميع من دون استثناء.. وفكرت لا.. هناك استثناء واحد ربما.. ربما البيت القديم والرجل القديم وغرف الهوام وسراييب العناكب.. عالم الأساطير المتنفسة في ذاكرة البلدة حتى هذا اليوم.. حتى هذه الساعة.. لا أحد ينسى.. لا أحد بمقدوره أن ينسى.

كانت الأسماء تتابع على الألسن، وبكاء الصغار المروعين.. تأوهات العجائز الملاحقات بصولجان الموت، وصيحات الاستنجد التي كانت تنتهي مثل الصدى كأنها آتية من أمكنة نائية وأزمنة غابرة.

أقسم أحدهم بأغلظ الأيمان أنه رأى بواكير المياه منذ الغروب وهي تشبه الجبال الراكضة في النهر.. بسمل شيخ كبير وحوقل آخر. وبعد دقائق طويلة فطنا إلى أن لا ماء تحت أرجلنا.. لقد سبقنا الفيضان، ولكن رجلاً أكد بثقة أنه سيطاردنا وربما غمر التلال أيضاً.. قال شيخ آخر "لا عاصم اليوم من أمر الله". وكنا نمشي.. نمشي.. صارت البلدة وراءنا.. كنا مثل فلول جيش مهزوم من كارثة ماحقة.. الفلول التي نجت بأعجوبة من الموت وتبغى الآن أرضاً محايدة لتطمئن. وبعد ساعتين أو أكثر تسلفنا التلال أو وجدنا أنفسنا نتسلقها، وعندما جعلنا فوق قممها الواطئة جلسنا لاهئين، وإذ ذاك شعرنا للمرة الأولى بأن الرياح باردة جداً، وأن المطر سيعاود السقوط ثانية.

## . 2 .

مذوعبت الدنيا رأيته أمامي، راسخاً كما لو أنه كان هناك منذ الأزل، وإنه سيبقى راسخاً هكذا حتى نهايات العالم، وعندما قال أبي أن هذا البيت قد شيد في الزمن الذي عاشه جدي الرابع، لم أستطع تصديقه وسطحات خيالي اللاحقة مدينة إلى أبعد الحدود لوجود هذا البيت/ القصر أمام بيتنا... كنت أقرب من سياجه العالي بأقدام

وجلة أحاول أن أحس ماذا يمكن أن يكون وراء هذا العازل الشاهق، وما الذي يجري داخل بنائه الأسطوري الغريب.. البيوت كلها في العالم الذي أعرف متشابهة إلا هذا.. كنت أذهب مع أهلي إلى بيوت شتى في أزقة بعيدة.. أعين هندستها فلا أجد كبير فرق بينها وبين البيوت في زقاقنا، غير أنني لم أر بيتاً كهذا الذي لا يفصله عن بيتنا سوى عرض الزقاق الذي لا يتجاوز بضعة أمتار.. إنه البيت القديم.. البيت الكبير.. كان إزاء ناظري دوماً، وكان يستحوذ على معظم حجم الكون الغض الذي هو عقلي.

أندو من السياج.. يتملكني فضول كاسح.. أجلس وألصق أذني على طابوقه البارد.. الباردا في الفصول كلها.. أسمع.. التقط موجات الصمت.. الصمت الثقيل.. الصمت الذي ينذر بدوي ماحق قد يصدر في أية لحظة.. الصمت الذي يستحيل شيئاً فشيئاً إلى صفير رفيع، موحش، أو إلى أنين أليم.. "إنه البيك يحتضر" كنت أقول "إنه يحتضر منذ سنوات سحيقة" حتى إذا بدأت الكلاب تنبح كنت أنسحب.. كنت أعتقد أن النباح المتحشرج الشرس ذاك ليس لكلاب ككلاب الزقاق.. كنت أتخيلها كلاباً بشعور ملفوفة غزيرة وعيون نارية جاحظة ومخالب حمر.. كنت أنسحب مملوءاً بخوف غامض وبإحساس مهيم من أنها ستنتعص عليّ أحلامي، غير أنها لم تقتحمها.. كانت فقط ترتسم لي في مشهد مرعب وأنا في أشد أوقاتي يقظة.. تحاصرني من كل جانب وتنقض عليّ وتباشر بتقطيع أوصالي بشره حاقد وأنا أتألم.. كان الألم يغدو حقيقياً في لحمي وعظامي، وعندما أصحو من سطوة هذا الخيال أجدني وقد تعرق جبينني وغزا الجفاف حنجرتي.

مرة واحدة فقط حلمت بالبيت الكبير.. حلمت به يحترق.. تلتهم النيران فيه كل شيء، حتى الحيطان،

وتخرج العناكب وهي تشتعل ثم تصير هباء. ولكن لا كلاب.. لا نباح.. كانت الحرارة شديدة، وكنت في زاوية لا أجد لي مخرجاً منها، يستولي عليّ فزع مميت من أن الكلاب ستخرج من دوامة الحريق كتلاً من نار وتهجم علي.. وبدأت أصرخ.. أصرخ.  
أيقظوني وكنت أختض.. قالت أمي: حرارته كالتنور.

### .3.

كنت أصعد إلى سطح دارنا لألقي نظرة إلى داخل البيت الكبير، ومن بين فتحات الستارة الدائرية، الصغيرة لا أرى سوى الشرفات الثلاث المعقوفة. أفق ثمة دقائق طويلة تحت وطأة هواجس مبهمة، أمني النفس بأن تُشرع نافذة ما لألمح ولو للحظة وجهاً ما، كأننا ما، حيواناً ما، أو يُفتح باب من تلك الأبواب التي تؤدي إلى الشرفات. ولكن: لا فائدة.. الأبواب والشبابيك صماء كأنها ركبت هكذا، غير قابلة للفتح والإغلاق. فوق الشرفات هناك الستارة المزخرفة الهائلة الألوان، والمتأكلة أيضاً، أما تحت الشرفات فعالم مختلف خلف أشجار التوت والكالبتوس المنفوشة والمتداخلة. وكانت الشرفات المعقوفة الثلاث تشكل قوساً لم أكن أعرف أين ينتهي، لذلك كنت أظن أن الشرفات هي في الحقيقة ليست ثلاثاً فقط، بل أن هناك تتابعاً كبيراً منها إلى اليسار وإلى اليمين تكمل دائرة واسعة في المجهول.

في ليلة صيف غيراء كنا فوق سطح الدار نرقد أنا وأبي وأمي على أسرّتنا. أنا على سريري وهما على سريرهما المشترك داخل الناموسية البيضاء. وفجأة انبعثت صرخة ممطوطة وجيعة.. كنت بين النوم واليقظة، أتحرى في السماء العكرة عن النجوم، عن بنات نعش، وعن الميزان.. عن كواكب للحظ والسعد.. أحسست أن أمرا

جللاً قد حصل.. غادر أبوي سريرهما نحو الستارة المطلة على الزقاق.. تلك الصرخة أعقبها صياح وشتائم وأصوات ضرب.. عندما اندفعت أخيراً لأنظر عبر واحدة من فتحات الستارة كان كل شيء قد تلاشى.. الأشخاص والأصوات والحدث.. لم أرَ إلا الباب الشاهق وهو يغلق بعنف ومن دون أن يصدر صريراً أو فرقعة كما كنت أتوقع إذا ما أغلق بعنف.

تبادل أبي وأمي نظرة ذات مغزى وهما ينسحبان إلى سريرهما ومن غير أن يفوها بكلمة.

أمرني أبي:

- عد إلى فراشك.. الساعة متأخرة.

سألت برجاء:

- ما الذي جرى؟

- لا شيء.. لا عليك.

- أبي.. من كان يصرخ؟

- قلت لا عليك.. عد إلى فراشك.

وعدت إلى فراشي.. عدت إلى ضغط الأسئلة السائبة وإلحاحها.. عدت إلى نفسي.. إلى تلك العقدة التي هي البيت الكبير.. انقضى زمن مديد وأنا أكابد بذكائي الغرير.. بسذاجتي الخرقاء بحثاً عن مفتاح لهذا اللغز الجديد.. عن مفتاح قد يعينني على فك مغاليق البيت المحيرة كلها.. كالعادة تجلّى مشهد قائم في مخيلتي.. رجلان مفتولان يقتادان شخصاً بائساً، ضئيلاً تحت ضربات عصا غليظة إلى داخل البيت.. إلى أحد سراديب العناكب وربما كان الليل قد انتصف عندما راحت صرخات حادة مستنجدة ونائية كأنها آتية من خلف التلال البعيدة تتناهب داخل أذني.. ولم تكن الصرخات قد انقطعت عندما تمكن منى ملاك النوم. وفي الصباح حكيت لأبي عن الصرخات التي

سمعت غير أنه أنكر أن يكون ذلك حقيقياً.. قال.  
- لا شك أنك كنت تحلم.

وبدءاً من تلك الليلة ففز من قيعان مخيلتي عقاب  
شرس نهم عاري الرقبة ينقر صدور الضحايا ويلتهم  
أحشاءهم.. حاولت أن أطرد هذا العقاب، أن أقصيه، أن  
أقتله ولكنني لم أستطع. قبع العقاب هناك في قفصه  
الحديدي داخل سرداب تقطنه أكثر كائنات البيت الكبير  
بشاعة وهو ينتظر في كل يوم جثة جديدة حفر عليها  
السوط أخايد كالحة لينجز معها الفصل الأخير من كرنفال  
القصاص.. هذا العقاب كان ينتهك عالمي كلما جلست  
لتناول الطعام ليمارس أمامي طقسه الشنيع.

#### . 4 .

بعد يوم قاسي البرد فوق التلال، وبعد مواجهة جولتين  
حازمتين للمطر. وكان المطر قد وصل حتى الحافات  
الأمامية للتلال حضرت فرق الإنقاذ وفرق الإغاثة.. أقيم  
المخيم ووزع الطعام والبطانيات ونظرات الشفقة والكلام  
المفعم بالعزاء والوعود والأمانى. وانتظرنا انحسار الماء  
حتى إذا مضى أسبوع كامل وعبرت الشمس فوقنا - أو  
نحن الذين مضينا تحتها - سبع مرات غيض الماء فنزلنا  
جماعات لنرى ما الذي حدث لبلدتنا المنحوسة. إذ نحن  
في الطريق إليها تذكرت البيت الكبير.. السياج العالي  
والباب الشاهق والشرفات المعقوفة والبيك العتيق.. تذكرت  
الكلاب المنفوشة الشعر وغرف العناكب وسراييب الهوام  
والرجال الشرسين وأولئك الذين ابتلعت صرخاتهم  
الأغوار السرية لبيت الأمجاد البيكوية.

فكرت بالبيت الكبير ولم أفكر ببيتي أنا، بالغرف  
البائسة والحيطان المحدبة والسلم الموشك على الانهيار..

لقد أذابها الماء كلها - بلا ريب وحمل طينها وأحجارها إلى الصحراء. ولكن البيت الكبير.. هل بإمكان الماء تقويض أركان البيت الكبير والنفاذ إلى أعماقه المعزولة وخلع نوافذه وأبوابه، ومن ثم تركه انقراضاً تشير إلى أزمنة مفقودة، وكائنات منقرضة وبضع حوادث مشوشة في ذاكرة بعض الناس؟

مررنا بدروب لم نتعرف عليها، وأحياء لم نتبين ملامحها، وأزقة ضاعت حدودها.. كانت البلدة قد غادرت مع ماردي الفيضان إلى حيث لا نعلم، وبقيت ثمة أشجار مقتولة وخرائب مزللة وأشياء كانت يوماً ما أثاثاً وأدوات منزلية ولم تعد ذات فائدة الآن.

لم نكن نرجو أن نرى بيوتنا سليمة وأزقتنا عامرة. ولكن كنا نريد نقل صورة حقيقية عن الكارثة لأولئك الذين لم يشاءوا مغادرة المخيم معنا.

كومة الأحجار التي كانت يوماً ما بيتي ما كان بمقدوري تمييزها لولا البيت الكبير - أو بقايا البيت الكبير.. وقفت مشدوهاً بقلب واجف أجيل البصر فيما آل إليه مصير البيت الكبير.. لم يعد هناك سياج عال.. لم يعد هناك باب شاهق.. لم تعد هناك شرفات معقوفة.. خطوط بحذر لأعين ما وراء الأشجار الساقطة وتل الحجارة.. كنت وحدي في هذا المكان، وشعرت بدمي يندفع بشدة هوجاء في تفاصيل الجسد.

لم أجرو على عبور مقدمة الأطلال - موئل كوابيس طفولتي.. جمدت.. ماذا لو..

وابتسمت.. لم أدع مخاوف السنوات البعيدة تسطو عليّ؟! خطوط خطوة واحدة - لا غير - ثم تراجعتم مرجئاً مغامرتي الاستكشافية إلى يوم آخر.. قريب.



## .5.

يستطيل البيت الكبير بدءاً من نهايات الجذور في  
مخيلتي النزقة عرفاً موحشة عفنة الظلمة يفتح بعضها  
على بعضها وتمتد أنفاق رطبة عطنة تنزل منها سلالم  
متضعضة إلى سراديب تقطنها جنيات ساحرات يمارسن  
طقوساً عجيبة ويؤدين رقصات منفعة على إيقاع طبول  
يضرِب عليها أقرام ملعونون.

تحتل الجدران مستوطنات العناكب حيث أجيال من  
حشرات مشنوقة حنطت، وأرتال من عصافير مخدوعة  
أستدرجت ولم تبق منها إلا عظام رفيعة وصدى زقزقات  
مستجدة، وحفلات عالقة من ريش ذابل وينز من الزوايا  
ماء كالصديد تخوض في بركه أفاع قميئة.

البيت الكبير مرتع كوابيس طفولتي ورعب سنوات  
الحرمان.. كنت أراه كأنناً أبداً بواجهته العتيقة التي  
استفزت في شياطين الخيال حتى كنت أظن أحياناً بأنه لم  
يكن قط على بعد أذرع قليلة من عتبة دارنا المنذورة  
للقيضانات والحرائق.

البيت الكبير، وكان يتهبأ لي في بعض الليالي وأنا  
عند الحافة القلقة بين النوم واليقظة بأنه وهم ليس إلا،  
وأنتي لن أجده غداً قبالتني عندما أفتح نافذة الغرفة/ غرفتي  
التي طالما دهمها سكان البيت الكبير المرعبين المشاكسين  
في الليالي، ودائماً في الليالي المختنقة من الظلام.. أفكر  
بأنني حين أستيقظ وأفرك عيني وأزيح الستارة سافجاً  
بحقل قمح أمامي أو صفوف باهرة من الأشجار ولكنني  
أستيقظ وأفرك عيني وأزيح الستارة وأراه في رسوخه  
القدري.. البيت الكبير/ معبد مخاوفي، فتَهزني ارتعاشة  
مباغته، صاعقة تفض الغشاء المخادع الذي تكوّن في  
الليلة الفائتة، فتشخص الحقيقة.. الحقيقة المربكة للبيت  
الكبير/ هيكل وساوسي، وتتجسد حالاً تضاريس المدينة

الغائرة المسحورة المختبئة التي ما وطأتها الشمس في أي يوم من أيام الرب.

وعبر تلك الفوضى يتسلل البيك شبحاً عتيقاً مغبراً، هائماً بين أفخاخ العناكب وبرك الأفاعي وأضرحة الحشرات الهوائية في ليل السرايب الأبدية، بيده فانوس متحشرج الضوء وعصا يتسلقها الدود، فأكاد أتصور تماماً عينيه الباهنتين - على الرغم من أنني لم أر البيك عن قرب وبوضوح - وهما تجوسان خلل عالمه الخاص، المملوك الحر، المستقل عن العالم الآخر.. عالم شقائنا نحن.. هناك اختفى ذات ليلة بعيدة رجل اقتنيد عنوة تحت ضربات السياط أو العصي أو الأيدي الخشنة القاسية، ولم يخرج.. قال أبي.. "ارجع إلى فراشك ونم.. لا عليك" وانتهى الرجل ربما بين أضراس الكلاب وخراطيم الحشرات الماصة وفي قدور الجنيات في إحدى احتقالات السحر الليلية، بحضور المبجل الفذ/ بيك البيت الكبير/ صياد لحظاتي المشتتة، وطريد خيالي حتى ليلة الفيضان، وربما حتى إلى الزمن الذي بعدها.

## .6.

قال أبي "البيك ليس هو البيك ذاته منذ وجد البيت الكبير.. الذي بنى البيت هو البيك الجد فورثه منه البيك الابن ثم البيك الحفيد.. إنه البيك الحفيد من يسكن الآن في البيت الكبير".

رأيته مرات عديدة يمتطي حصانه الرشيق الأسود داخلاً الزقاق ثم البيت إذ يفتح الباب حالماً يصل، لا أدري كيف، أو خارجاً من البيت دائماً على حصانه الرشيق الأسود وهدفه في كل مرة تفقد أملاكه.  
قال أبي "كان البيك الابن يفخر بعدد نخيله الذي يربو

على الخمسين ألف نخلة وبعده ماشيته التي لا تعد ولا تحصى.. كان يقول.. خمسون ألف نخلة بها أطوق البلدة، وبها أستطيع أن أجعلها تتنفس أو تحتق".

كان البيك الابن يكلم الناس ويجالسهم أحياناً ويضحك معهم أيضاً، كما يقول أبي، أما ابنه، البيك الحفيد، فلم أسمع أنه كلم فلاحاً من فلاحيه مباشرة.. إن أتباعه وحدهم لهم الحق في الاستماع إليه، لا مناقشته، ومن ثم نقل أوامره التي لا تناقش ولا ترد.

كنت أكابد في سبيل القبض على ملامحه.. كان وجهه كالزئبق يفلت من سيطرة مخيلتي.. على الحصان الرشيق الأسود كان يجيء بعمامته المقصبة وبنديقية الصيد ملتصقة بالسرج في تناول يده القديرة.. الحصان يخب، وخلفه الرجال يلهتون وهم يسرعون الخطى للحاق به حتى إذ بدأ الحصان بالعدو راحوا يهرولون والعرق يتصبب منهم، والنساء يخفين ضحكتهن المتهكمة تحت النقاب والأطفال يصفقون.. مشهد غالباً ما يتكرر. أما أنا فأقف على عتبة باب دارنا، أرسل النظر دون تردد إلى وجهه.. إلى عينيه.. إلى أنفه.. إلى فمه.. أتبين شكل كل جزء من ذلك الوجه ولكن الوجه بكليته لا أستطيع أن أعكسه على شاشة ذهني، أو أن أتمثله في ذاكرتي ولكنني عندما أراه أعرفه.. لا يمكن أن أتوهمه إنساناً آخر حتى وإن قابلته متتكرراً بزي غير هذا الذي يرتديه أبداً.. صايته التبنية وسترته الفضفاضة والغنرة البيضاء والعمامة المقصبة.

## .7.

لم يقل أبي ولكن الآخرين قالوا "أن البيك مغرم بالرقص وهز البطن والأرداف، وأنه خصص جزءاً من بستانه لإحياء الحفلات الماجنة" راقصات شهيرات كن يأتين تحت جناح الظلام ويغادرن تحت جناح الظلام من

دون المرور بالبلدة.. كانت سيارة البيك التي لم تدخل الزقاق أبداً تحملهن من ملاهي العاصمة إلى ذلك الطرف السري من البستان عبر الشارع الذي عبده من غير أن تكون له أية ضرورة بيد أننا فهمنا بعدئذ لأية ضرورة عبده وسماه الناس (شارع القحاب)/ هناك - والعهد على الرواة - كان البيك يتوسط الحلقة فوق بساط كشميري وسطل العرق أمامه - أجل سطل العرق لا زجاجة العرق - يغرف منه بطاسة نحاسية ويتابع بعينين شرهتين اهتزازات الأجساد المبدولة.. كانت الحفلات تستمر حتى ساعات الفجر، وعندما تغادر جوقة الطرب يكون البيك قد غط في نوم ثقيل، لا يصحو منه إلا على عواء بنات أوى في بداية الليلة التالية.

والبيك نفسه كان حريصاً على فرش سجاده بين حين وآخر أمام الفلاحين، والاستغراق في صلاة صامتة، وخلفه رجاله وهم مدججون ببنادق البرنو، وبالتجهم والحدق أيضاً.

لم يدخل الجامع أبداً.. قالوا أنه يرفض بكبرياء وتغطرس الوقوف خلف الإمام "لن أكون أدنى من أي كان في هذه البلدة، ولن أجعل قيادي بيد أي كان في هذه البلدة، ولن أستمع لمشورة أي كان في هذه البلدة" هذه الـ(لنات) الثلاث يقال أنه غالباً ما ردها في حضرة منافقيه لينقلوها باعتزاز إلى أسماع الجميع.

البيك.. البيك الجد أو الحفيد.. لا فرق.. البيت ذاته، والكلاب ذاتها، والعناكب ذاتها والأفاعي ذاتها.. وكنت أخال الريح الصافرة الكئيبة المحملة بالغبار الأحمر تهب من كوى الغرف الفاسدة الهواء والتي لا تفتح إلا بأمر من بيك الأزمنة اللعينة ولا تغلق إلا إذا شاء.

إن قدح الماء لم يقص الجفاف المر من حلقي.. إن أقداح الدنيا كلها لو ملئت بالماء الزلال لما استطاعت

إرواء القفر الذي بت أحسه يتكون في صدري وأنا أعود  
من البلدة المنكوبة كما لو كنت محملاً بأنقاض البلدة كلها  
كصخرة سيزيف على كاهلي.

اندسست تحت الغطاء ولما تغرب الشمس بعد..  
الفضاء الذي انكشف كان رمادياً.. ربطوا يدي بحبل  
خشن.. كانوا خمسة رجال أو ستة، وناولوا طرف الحبل  
للرجل الملتزم على الحصان.. وفكرت، إنهم يريدون  
سحلي.. إلتفت الفارس إلي.. عرفته حالاً.. من عينيه  
الضيفتين عرفته.. من جبينه المحرز.. إنه البيك.. ماذا يريد  
البيك مني؟.. انطلق الحصان.. كان حصانه الأسود  
عينه.. كانت الأرض تحتي حصباء قاسية.. شعرت بألم  
ممض في جنبي وصرخت.. سقط البيك وتلاشي الحصان،  
وأيقظتني زوجتي.. كان الظلام دامساً، وكان الألم ينغز في  
جنبي، وكنت أنتفخ بعسر.

## .8.

لاحقتني كائنات البيت الكبير إلى المدرسة.. كانت  
تدخل غرفة الدرس لتخطفني من عالم أقراني وتوجه  
انتباهي إلى أمادها البغيضة.. كنت أحملق فيها مصعوقاً  
للحظات، ثم يعيدني صوت المعلم ثانية إلى غرفة الدرس.  
ومع مرور الأيام والسنوات كفت تلك الكائنات عن اقتحام  
أسوار المدرسة المنيعه رويداً رويداً، ومراوغة صوت  
المعلم الذي بات يؤدي دور الحراسة لي ليحول دون ذلك  
الاقتحام.. ينست الكائنات تلك، لذا غدت المدرسة أكثر ألفة  
عندي من البيت، والنهار أشد لطفاً من الليل. وعندما ماتت  
أمي بعد موت أبي بأشهر لم يعد البيت - الذي صار بيتي،  
لي وحدي - يطاق.. لم أعد أحتلم دبيب الكائنات المحترس  
في عتمة الغرف والباحة.. لم أعد أحتلم ألعابها المجنونة  
مع انكسارات الظلال الراجفة على الجدران في الليالي

## المقبرة.

قال رؤوف النجار:

أنت شاب ولا يليق بك العيش على الصدقات.. تعال  
اعمل معي، اكتشفت الرقية التي بإمكانها الفتك بكائنات  
البيت الكبير.. دق المسامير ونشر الخشب.. كان كل  
مسمار من تلك المسامير الناتئة يغوص في قلب كائن من  
تلك الكائنات ويقتله.. كل مسمار كان يقتل عنكبوتاً أو أفعى  
أو كلباً أو ابن أوى، أو جنية من جنيات السراذيب النتنة -  
الشريرة. وكل حزة منشار كانت تفصل جسد كائن من تلك  
الكائنات عن رأسه.. أحببت العمل.. عشقته حد المرض..  
حد التعب الذي يصل بالمرء إلى حافة الإغماء.. وكم  
حلمت برجال من أتباع البيك يأتون ذات صباح بعيون  
محتقنة ويطلبون مني.. مني أنا أن أصنع تابوتاً لبيك  
العذابات العاوية.. كنت أراهم يمرون قرب المحل..  
وجوههم متجهمة والبنادق على أكتافهم العريضة والعصي  
في أيديهم. وعندما كانوا يقتربون كنت أنشر الخشب أو  
أدق المسامير بحزم وشراسة.

وفكرت أن أقتل العقاب.. العقاب الذي نقر قلب أبي  
والتهم كبده.. قلت " ألف مسمار.. لا أقل، سيصيب من  
العقاب اللعين مقتلاً.. وقتلته.

كبرت.. تحررت من أوهام كثيرة، واندحرت خيالات  
شتى أمام هجمات الواقع.. كبرت، وكنت أعتقد أن خارطة  
البيت الكبير المتشعبة والمرعبة ستتضاءل في رأسي..  
تغيرت أشياء كثيرة. ولم تدم الأحوال مثلما كانت فقد  
تعلمت أشياء وأشياء غير أن البيت الكبير ظل يحتل الجزء  
الأهم من تضاريس ذاكرتي، واستمر في كونه الميدان  
المغري الذي يخوض فيه خيالي مغامراته.

## .9.

ذات نهار شتائي أوقف سيارته السلحفاة - الفولكس واكن - الحمراء في مواجهة المقهى ونزل.. رجل في العقد الخامس ما يميزه طوله السامق وخيط شاربه الرفيع.. سأل عن بيت البيك.. أشاروا لي:

- هل تسمح أن تجيء معي؟

- لم لا؟

وصعدت إلى جانبه.. كدت أسأله عما يريد من البيك.. أهو قريبه؟ أم أنه جاء من أجل تعاقد تجاري؟ كنت أفتح فمي وأغلقه.. أريد الكلام لكن مشروط التردد يهوي على لساني ويجرحه.. تمنيت لو يتكلم غير أنه بقي صامتاً طوال الطريق.

- هذا هو بيت البيك.

- شكراً.

ونزلت من سيارته.. فكرت أن أبقى لأراقب كيف سيستقبل بيد أنني لم أجد مسوغاً لنفسي يدعوني للبقاء فرجعت إلى المقهى.. في اليوم التالي سرت شائعة مهموسة.. الرجل واحد من أكثر قوادي العاصمة نفوذاً ومهمته تتعلق بصفقة دعارة.. بعد أسبوع شوهدت ثلاث سيارات تقطع (شارع القحاب) أول الليل، وتدخل واحداً من بساتين البيك عند كتف النهر. وقيل أن السلحفاة الحمراء كانت في المقدمة.

## .10.

البيت الكبير عنكبوت أسطوري يستوطن جمجمتي ويقتات على الخلايا ماداً خيوطه اللزجة في الجهات كلها.  
وعلى الرغم من فخامته، وضخامة أعمدته كان البيت

الكبير يتراءى لي في بعض الأحيان هشاً.. قابلاً للسقوط في أية لحظة.. وذات حلم يقظة تصورته يتداعى ليستحيل إلى ركام من الحجارة، والعناكب المذعورة التي ألفت الرطوبة تخرج سوداء تسعى من بين الأنقاض لتتحلل في الشمس. أما الأفاعي الزاحفة فتتكفل بها عصبي الفلاحين الغليظة.. لم أفكر يوماً بفيضانات أو بزلازل أو بعواصف هالكة تكون السبب في المصير الحتمي المتوقع للخرافة المجسدة هذه. وحتى لو كنت أفكر بمثل هذه الأهوال فإن البيت الكبير كان يترسخ قوياً في مواجهتها، في دنيا تصوراتي.. كان الشيء الوحيد الذي ظننت أنه سيرسم نهاية البيت الكبير هو البيت الكبير ذاته.. قانون خاص سيفعل فعله في برهة خاطفة من الزمن عندما تتلاقى بمحض المصادفة في ذروة ما لصراع وتتخلع الأبواب وتختفي الشرفات المعقوفة عن الأنظار وإلى الأبد. ولكن ما كان يفزعني في الأمر هو ذلك التخيل العنيد الذي لم يكن من السهل إبعاده.. أن تجثم الأنقاض على البيوت القريبة من البيت الكبير ومن هذه البيوت بيتنا نحن.. كان كابوساً غاية في الرعب يمسكني من خنأقي في وضوح النهار.. لا يستمر إلا لمدة وجيزة ليخلف شعوراً كالحما طويلاً بالضييق، وربما بالاختناق كذلك. أما حين تهب ريح شديدة فإنني لم أكن أمل أبداً أن تلحق ضرراً ما بالبنين المرصوص للبيت الكبير.. الماموث المتحجر منذ ملايين السنين الضوئية والقابع كالقدر إزاء بيتنا.. ويحيرني سؤال ضاعط: لماذا اختار أبي هذا المكان ليبنى بيته.. لماذا قبالة البيت الكبير تحديداً؟ ولكن: أهو أبي الذي بنى البيت أو هو جدي؟ ليكن الذي بناه أبي أو جدي، غير أن السؤال يلح: لما اختار هذا المكان؟ هل كان في الأمر نوع من التحدي، أم هي الأمنية في أن تنوش بركات البيت الكبير البيت الذي يقابله؟.. لا أدري، ولن أدري.. ثم لماذا لم أبع أنا البيت وأبحث عن بيت آخر في زقاق آخر، أو حتى في



مدينة أخرى وأهرب من تطاول البيت الكبير على أفكاري  
وعلى أحلامي وعلى زمني.. بصراحة؛ لم يخطر ببالي  
هذا الاحتمال قبل الآن.

## .11.

ترى ما مصير البيك؟ هل غرق ودفن تحت أنقاض  
أسطوره المروعة؟ هل انسل في اللحظة الأخيرة هاربا  
من زحف الموت المقبل عليه؟ وإن كان هذا الافتراض  
الأخير صحيحاً فأين تراه في هذه الساعة؟ وتمنيت لو أراه  
الآن، وأنقرس في وجهه لأتحرى عن المكونات الخفية  
لأعماقه من خلال عينيه واختلاجات فمه الأدرد وخطوط  
التغضن على جبينه الأثري.. واستغربت كيف يموت  
وتبقى البلدة هادئة كأن شيئاً لم يحدث؟ وأقسم رجل أنه ميز  
البيك في الظلام - ليلة الفيضان - محمولاً على كتفي رجل  
من أتباعه، وحين سألت الحاج محمود قال:  
- ما الفائدة إن كان مات أو لم يمت.. ما فائدة موته  
الآن؟

ما فائدة سؤال كهذا والبلدة خربت كأنها لم تكن يوماً؟

## .12.

ضحى اليوم التالي كانت لي جولة أخرى في البلدة  
المهدمة.. شحنة من التوتر تجعلني في مستوى بين الوعي  
الحاد بالأشياء والغياب عنها، ورغبة غامرة تدفعني  
لتقويض رهاب البيت الكبير في نفسي.. في مضايق  
وأرخبيلات أعصابي.. أحث خطواتي.. أدوس على  
حشرات التردد التي تعترضني.. أقاوم بكتريا الخوف في  
دمي.. زرقة السماء نقية ووديعة، والريح لينة باردة

وخواطري شتات من أسئلة وذكريات وصور تضطرب  
وتذوي في فيعان لا قرارة لها.. أدنو من الزقاق.. أدنو من  
البيت الكبير منفي التهيزات القديمة وشطحاتي.. وحدي،  
وحشد من عصافير تزقزق.. مجساتي مستنفرة.. وحدي،  
ورائحة نباتات منفسخة تستقبلني.. وحدي.. أه.. لست  
وحدي.. يقترب مني.. من أين أتى؟ وكيف أنبثق من بين  
أكوام الطابوق والجص الذائب.  
- جنئت أبحث عن جنيات البئر.

قالها متهكماً وضحك.. قهقه بصوت عال، ثم أضاف  
من غير أن تفارقه سخريته.. بقيت صامتاً وتقصدت  
الابتسام.. هز رأسه وقد سافرت نظراته بعيداً.

- إيه.. الزمان.. كم هو قوي.. من كان يتصور؟

كنت مهتاجاً، وتمنيت لو يتركني هذا الرجل في هذه  
الساعة.. ما الذي جاء يفعله هنا؟ إنه من زقاق آخر.. أتكون  
كائنات البيت الكبير قد اغتصبت حياته هو الآخر  
واستحوذت على مساحات مهمة في تفكيره وخياله؟ وقبض  
على ذهني خاطر مخيف.. من يدري.. لعننا جميعاً سكان  
هذه البلدة الشقية قد تعرضنا لانتهاكات تلکم الكائنات.

ابتعد الرجل وهو يزفر بحرقة، وأدركت أنني  
أصبحت وحيداً ثانية.. عادت الهواجس القلقة تنط في  
دخيلتي.. بيني وبين الخط الخطر متر واحد.. متر واحد  
فقط.. الفاصلة المستحيلة التي حددت نطاق عالمي طوال  
سنوات.. طوال مسافة العمر، وأحسستني أرتجف.. بررت  
ذلك بالريح الباردة، ولكن لا.. ونقلت خطوة قصيرة، ثم  
خطوة قصيرة أخرى. أما الخطوة الثالثة التي نقلت قدمي  
إلى ما وراء الحد الخرافي فقد كادت تطيح بي.. تمالكت  
نفسي.. تماسكت.. تنفست بعمق وكنت ما أزال أرتجف..  
سحبت قدمي المترراجعة، وحين حامت في الهواء شعرت  
كم هو خفيف هذا الجسد وخشيت أن أتهاوى، أو أحلق

عالياً، غير أن نزول مشط الأصابع على الأرض المربكة أعادت لي التوازن وخيل إلي أنني سحقت شيئاً ماءً، تفتتت تحت حذائي.. شيء لا أستطيع تحديده تماماً.. شوكة.. حشرة.. عظمة نخرة.. شظية زجاجة.. لا أدري فعندما رفعت قدمي لم أر ذلك الشيء.. لقد غاص في التربة الرطبة.. أغمضت عيني وشعرت ببعض الارتياح.. كانت ثمة الأشجار أولاً.. الأشجار وقد تساقط بعضها على بعض، وغدت جذوعها سوداً وأوراقها ذابلة.. تحاشيت المرور فوقها.. اخترت ممراً ضيقاً ووقفت إزاء جبل الأنقاض.. قلت أن البئر ينبغي أن تكون في الجهة الثانية، وفجأة قدرت ألا أفكر بأي شيء.. مشيت بخطوات أردتها أن تكون واثقة وصعدت.. عثرت بعارضة ملقاة بين نثار المجد المهزوم.. لم أسقطه، ولم أتراجع.. واصلت الرحلة العصبية.. الرحلة إلى أعماق ذاتي.. إلى بيت الأوهام المنهار.

إنها بقايا صور رجراجة، مهوشة تحضر.. تهتز، وتتبدد.. بقايا صور زمن منسي، غابر، إلا أنه حقيقي.. بإمكانني أن أؤكد هذا، فأنيين أبي وبكاء أمي، وزيارات بعض الرجال الحذرة، وذلك المنظر الفظيع الذي رأيته.. تلك الحزوز الحمر في جسد أبي وهو عار في الغرفة وأمي تمسح على الخطوط الدامية بمرهم أصفر أو أسود.. لا أتذكر جيداً.. ذلك المنظر المعذب، وأنا أتجسس من خلل النافذة، لا يمكن أن يكون من مخلفات الأحلام.

سألت.. لم يجبني أحد.. قال أبي أنه مريض، وقالت أمي أنهم الظلمة ولم أفهم.. بعد سنوات طويلة عرفت.. حكى لي الحاج محمود.. كان أبي يجلس في ظل شجرة بعد نهار مكدود، يلف سيارته عندما باغته.. بيك الأزمنة اللعينة.. لم يحييه.. لم يسأله.. لم يستجوبه.... هوى على ظهره بالسوط وأكمل رجاله المهمة.. انهالت السياط على جسده المظني وهو يصرخ أو (يعوي) كما قال الحاج

محمود.

أبي.. نسغ أشجار البيك من عرق أبي، من دم أبي، من عرق البلدة ودمها.. مات أبي بعد سنة واحدة، وبقي باب البيت الكبير موصداً عندما شيعوه.. كانوا عشرة رجال.. أكثر أو أقل بقليل.. جاء رجل من طرف البيك ونهر النساء باسم البيك (لا تصوتن.. إنه يريد أن ينام).

- لماذا لم تخبرني قبل الآن؟

- وماذا كنت ستصنع لو أخبرتك؟

- كان ينبغي أن أعلم.

- بصراحة كنت أظنك تعلم.

- أعلم أو لا أعلم..

سألت زوجتي:

- هل أنا عاجز.

رمقتني باستغراب.

- عاجز؟!!

وتنجس الدوامات العاصفة من قلب البيت الكبير. ويهيمن الغبار، يكُم مسامات البلدة.. الناس والبيوت والأشجار، وحتى النهر ينحدر متمهلاً عكراً كشيخ منهك.

وبعد أمطار ساخطة انهمرت ثلاثة أيام بليليتها سطعت شمس باردة.. دار سرب الزراير.. علا وهبط.. كان هبوطاً غريباً، سريعاً.. مصاحباً بالزعيق كأن طاقة رهيبة سحبتة إلى المجهول خلف أشجار التوت واليوكالبتوس.. خلف الشرفات الثلاث المعقوفة، إلى سراديب الضياع، وشعرت بكف خشنة تدعك أحشائي.. كنت على سطح الدار.. وقفت مذهولاً يائساً، أهدق بحقد إلى البيت الكبير، مأوى شياطين الموت. حام سرب آخر.. صحت به ابتعد.. ابتعد.. وانساب نحو البساتين.. داخلني شيء من الراحة ونزلت.

قلت للحاج محمود:

- ولماذا ضربه؟ أيكفي أن يكون ما تقوله سبباً؟

- لا تكن لحوحاً.. إنها مسألة قديمة مضت وانتهت.

هل انتهت حقاً؟ وكانت أسراب الزرازير تأتي  
وأسراب الغاق والعصافير كذلك.. وكانت الفخاة تعبر من  
شجرة إلى شجرة، ومن بيت إلى بيت.. كنت أصيح بها  
كلها.. ابتعدي، ابتعدي، وكانت تبتعد.. كانت دائماً تسمعني  
وتطيع وتبتعد.. كانت الطيور بأنواعها تحلق وتحط في كل  
ساعة من ساعات النهار غير أنني لم أكن متفرغاً لها على  
الدوام. ولشد ما كانت فكرة أن تغوى الطيور وتُهلك في  
شراك البيت الكبير تحزنني وتؤرقني.

### .13.

انتهت إلى وجود قدور ودلاء وأوان نحاسية مبعثرة  
في مواضع مختلفة من جبل الحطام هذا.. لمحت طرفاً من  
قمّاش اسودّ تماماً، يبدو أنه كان في يوم ما قريب ناصع  
البياض. وتحت كتلة حجرية كانت تقبع سكين كبيرة  
صدئة. وفي كل مكان كانت تنتشر شظايا زجاج محطم كما  
لو أنها نثرت قصداً.. كنت أصعد، متوقفاً في كل خطوة أن  
ينفتح شدة تحت قدمي وبيتلعني.. كنت أنحسس الموضع  
قبل أن أطأه مختبراً صلابته قبل أن أنزل رجلي فيه.. أنا  
الآن على أطلال تاريخ شائك وملتو لم تكشف فصوله كلها  
بعد، ولم تستغور طبقاته كلها بعد، أجول بنظراتي في  
خارطة الفوضى التي أنجزها فيضان نرق وعات وقدري  
كأنني أبحث عن شيء ما، محدد لا أعرف ما هو، ولكنني  
إن رأيت عرفته حالاً.

لماذا أنا هنا؟ ما الذي أبعيه؟ هل جئت متشفياً مما آل  
إليه بيت قلقي وبلوأي؟ أم أن غايتي هي أن أقطع الشك

باليقين وأتأكد من أن البيت الذي حاصر أيامي مذ بدأت  
أحس بكينوتتي قد سقط حقاً؟

استدرت لأطمئن أن لا أحد في الجوار يراقبني  
وأيقنت أنني وحدي هذه المرة. وانتابنتي مشاعر متضاربة  
هي مزيج من الوجع والارتياح والفضول. وراح قلبي  
يعجل بضخ الدم في العروق، وألفيت نفسي فوق نثار  
الصرح المخدول. وفي الجانب الآخر فوجئت بما كاد أن  
يوقف في جسدي كل أثر للحركة.. تلال من أنقاض.. تلال  
لا غير من أنقاض.. تلال من أنقاض وحتى صفوف  
النخيل التي تراءت، والتي يظهر أنها صمدت بوجه  
الفيضان. وكدت أطلق صرخة دهشة، وربما أطلقتها فعلاً  
إلا أنها اختنقت في مقدمة الحنجرة.. كان الهواء بارداً،  
وأستشقت منه ملاء رئتي وأقعبت.. غرزت أصابعي في  
وحل الأنقاض، وجعلت أنبش ثمة.. لا أدري عم كنت أنقب  
وشعرت بوخز حاد.. سحبت يدي كان الدم يقطر من  
طرف إبهامي وأمسك بي الدوار، وأنسدلت فوق عيني  
ظلال قاتمة.

تهيأ لي أن بكتريا الخوف التي اعتاشت في خلاياي  
مذ رأيت النور.. مذ واجهت البيت الكبير.. تلك البكتريا  
باتت تخرج من فم الجرح وهي ميتة.. تخرج بالآلاف،  
تخرج بالملايين، وتملكني ألم شامل ربما كان يشبه ألم  
المخاض.. غرزت أصابعي في الوحل ثانية، ولتفتق جرح  
آخر، ولتفتق جروح كثيرة، لأنفص البكتريا كلها التي  
غذتها تحت جلدي كائنات البيت الكبير. وعلى حين غرة  
أحاطت أصابعي بمقبض ماء، لسيف أو سكين، أو أي شيء  
آخر.. ركزت قواي التي أملك في يدي وصرت أسحب  
ذلك المقبض.. في البدء تشبثت به الحجارة والأشياء  
الغريقة، بيد أنها لم تقاوم طويلاً.. استسلمت لمد الحنق  
الذي اجتاحني وأعاد الصحو إلى أعصابي.. انتزعت  
المقبض فاخضت جسدي كله.. إنه مقبض، سوط.. أجل،

وفي برهة كان السوط بيدي.

وقفت.. رفعت ساعدي.. أرخيته، ثم وترته، وهويت بالسوط على الركام.. على قبر الكائنات التي دفنت حية... كائنات شقائي.

فرقع السوط وهو يصفع الفراغ، وعندما اصطدم بالمادة الميتة لبقايا العزة البيكوية المدنسة خيل إلي أن شرارة وجبعة قد انبعثت بفعل الاحتكاك العنيف. ونط تساؤل ملحاح في ذهني: ماذا لو انشقت التلال وخرجت الكائنات المقيتة من سراديبها واقتادتني إلى الداخل.. ماذا لو أجلسوني على كرسي من إير ومسامير وطفقت العناكب تشدني إليه بخيوط سلكية جارحة.. تساؤل عبر فضاء ذهني وعجبت كيف لم يخلف ذلك الانقباض والضيق اللذان كان يخفهما كل تساؤل من هذا القبيل في السابق.. بدا التساؤل باهتاً وحيادياً وأحست أن بمقدوري اقصاءه إلى الدرك الأسفل من كياني العقلي وإحراقه هناك وتبديد رماده.. لم أكن منشراحاً تماماً كنت مغموراً بأسى صاف، شديد النقاوة وبدا لي أنني سأبكي، وسيتفجر الدمع ساخناً مطهراً.. كان السوط بيدي وأنا أغلب اليكأ، ولاحظت أن دمي يخضب مقبض السوط.. ما زال جرحي ينزف، وروحي ترتعش.

بحثت عن البئر التي أشار إليها الرجل.. وجدتها مثلما قال مهدمة ومطمورة حتى لا تكاد تتأكد من أنها كانت بئراً إلى يوم قريب.

ولبت بعينين هادنتين علني أعثر على المداخل الوهمية لجحور المخلوقات التي كانت تقدح من كون مخيلتي لتضطهني في ليالي الوحشة والصراخ وصدى أنات المعذبين.

وتبين لي أن الفيضان قد سدّ قنوات الحياة كلها، وأكاد أقول قنوات الموت كلها الموبوءة في البيت الكبير وكنتم

على الأنفاس الكريهة لسكان بيت البيك / الأشباح.. البيك  
الذي مضى هو الآخر مع الفيضان.. مضى مع السر  
العجيب.. سر القرون الدامية.

تنقلت بين الأكوام وأنا أضرب بالسوط هيكل الماموث  
المحطم.. أضرب بقايا الأضلاع النخرة والأنياب  
المتسوسة التي تفتت تحت عبء السنين. وبغثة تجلت لي  
الحقيقية – أو ما افترضت بأنها الحقيقية – الماموث كان ميتاً  
من زمن سحيق، وذلك الفيضان العرم لم يفعل سوى  
الإعلان عن موته، وكشف جثته لأهل بلدتنا المخدوعين.

#### -14-

عدت إلى المخيم مع سوط أوجاعي.. كان ما يزال  
رطباً.. نشرته تحت الشمس التي كانت في مستوى سار  
من التأجج اللذيذ حتى إذا أقبل الليل وتوهجت النجوم  
تلمست السوط.. المقبض الخشن والجلد الطويل –النحيل..  
كان جافاً إلى حد يمكن معه تقطيعه باليد.. وضعته في  
حفرة أمام خيمتي وسكبت عليه قليلاً من النفط وأشعلت  
عود ثقاب.. لأحرق هذا ألهب ظهر أبي وقتله ورحت  
أردد في سكون الليل.. قتله، قتله.. حشرجت النار وانبعثت  
رائحة دماء.. أغمضت عيني إلا أن ألسنة اللهب لم تغب  
عن حواسي.. رأيت العناكب تحترق في دوامة النار  
الصغيرة هذه، والأفاعي تحترق، والكلاب يعيونها الحمر..  
كلاب بيت البيك.. تتضاءل وتلج النار.. لتحترق...

بعقوبة/1991





## العجر لن يجيئوا ثانية

-1-

يأتون فجرًا، طالعين من خاصرة الشمس وذات عشية  
يختفون.. يرحلون بلهفتي المجنونة.. لو أتبعهم.. أكون  
معهم.. منهم، لأنهم وحدهم يملكون الهواء كله والليل كله  
والأفاق كلها، والسماء.

واحدة منهم أرنتي المعجزة في مساء فائر عابث..  
كان بين أصابعها السحر وعلى تكويرة بطنها البركان.  
ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عنهم.

قالت سهى: عنهم أم عنها؟

قلت: عن بقية اللحم الذي تركوه.

أكدت: عنهم أم عنها؟

قلت: بل عنك.

وعنها بتّ أبحث.. عن سهى الضالعة بالترحال عبر  
مسامات الزمان.. سهى المتسرية كالطيف كأنها لم تكن، أو  
كما لو أنها راحت تفتفي أثار خطاهم، أولئك العجر  
المولعين بالمناهات.. كأنها سليلتهم.

أتراهم نسوها - وهي طفلة تحبو - في فوضى مطاردة  
ما - يُسقطون خيامهم ويجمعون خلقهم ويحثون حميرهم

- 56 -

على الابتعاد - أو تراهم ضحوا بها بين خرائب مدينتنا  
هاربين من لعنة موسم شحيح؟ ومن يدري فلربما  
أضاعوها في حمى جنون، هم الذين لا يليق الجنون  
بسواهم.

قالت سهى: أتبحث عنهم في؟

قلت: بل أبحث عنك فيهم.

في أخريات الربيع من كل سنة تنتظرهم المدينة..  
تتطلع في شغف إلى أفق الشمس حيث يطلون. وحين  
يقبلون تستعجل المدينة رحيلهم كأنها تخاف فرحهم..  
معصياتهم.. جرأتهم.. أحلامهم.. جنونهم وحرينهم.

تألفهم العصافير والتبرات والأطفال والكلاب السائبة  
التي تغادر بعضها المدينة لترافقهم، ولا تألفهم المدينة..  
يتحملون شتائمها وسوء ظنونها وغيرها وأذاها. وحين  
يمضون يلوحون ضاحكين فتنبقى المدينة واجمة يغمرها  
الأسى لفراقهم والأسف والهمود.

هم وطن يسافر أبداً.. يتحاشى مفازات الحروب ليتبع  
حلماً منذ ألف ألف سنة.. أملاً يعرفون هم قبل غيرهم أنه  
محض سراب، وعلى الرغم من ذلك يلاحقونه.. ودهم  
العجر يلاحقون قدرهم ولا يدعونه يلاحقهم.

البقاء حصارهم، وفي الدائرة الرائعة التي يصنعون  
يباغتهم حقد المدينة إذ تحت أولادها على رجمهم. وتنهال  
عليهم الحجارة فيخرجون من تحت خيامهم يردون  
بالحجارة الغاضبة، فتتفرط عصبية الأولاد، وتنكفي المدينة  
في جبل فتراهم يخبئون وطنهم بين عجائب أسيانهم  
ليهربوه سرا إلى جنة ليسوا ببالغيها أبداً.

-2-

دائرة العجر بهرجة ألوان وخرائب خلف ربوة السكة

الحديد. وكانوا ينزلون في المكان عينه دوماً خلف ربوة  
السكة كأن لهم بهذه البقعة صلة سرية.. ينتشرون بين  
حميرهم ويلعبون صائحين.. لا أحد يشاهد هذا الحشد  
المتأزر من الحمير إلا مع قدوم العجر.. خيول قليلة تزهو  
في خيب راقص وسط الحضور المذهل في رتابته وسلامه  
للحمير.. وكلاب متبختره تحيط بالدائرة الأسرة.

وجاءت..

من هناك جاءت تمتطي حمارها، هائجة في عنفوان  
الماء عند المضائق المباعثة.. الشهوة في تطلع الصدر،  
وفي الثقل المفروش للردفين على ظهر الحمار.. الشهوة  
في الاضمامة المغرورة للقم.. الشهوة في الانهمار اللامع  
الوفير للشعر.. الشهوة في الانفراجة الحتمية للفضين وهي  
راكبة كأنما على صهوة العالم.

والحمار يتحمل هذا العبء اللذيذ.. وانتظر الحمار  
ساكناً أو ربما نائماً وهي تعيط بالرغبة تأخذني لأول التيه.  
سهى.. أنت آخر التيه.. خلاصة كتاب الرحيل..  
خلاصة سلطة النساء وفتنتهن وشهوتهن، وكيدهن الباهر  
العظيم.

تلك المرأة في مساء المعجزة صرخت فنبحت كلاب  
طليعة الليل، وأجفل طير نائم أعلى شجرة التوت.. تحت  
التوت كنا.

قالت: هذه ليلتنا الأخيرة هنا.

قلت: ماذا لو أجيء معكم.

لوت فمها، وفي عينيها هدر بحر العسل.

قلت: سهى لا تنظري هكذا.. بحر العسل يقسرني  
على الصباح.

قالت: هيا، صح.

صحت: أحبك سهى.. أحب جنونك العجري.

ضجت العصافير أعلى أشجار التين والنارنج.  
قالت: أنت المجنون.  
قلت: يا ليت..  
في ليل الجائحة ذاك كنت أتلفت.. قالت العجرية:  
-الحرية أن لا تخاف.  
قلت: سأجيء معكم.  
قالت: لن تستطيع لأنك لم تجن بما فيه الكفاية.  
قبلت شلال الحليب على ساقها.  
قبلت على عجل دفق النبيذ على ساعد سهي.  
قالت: لنمض، فضحتنا.  
قلت: أنت المعجزة ثانية ومشينا في ظهيرة الحديقة..  
ما كنت أتلفت خوفاً ولم تكن هي الأخرى خائفة.. مساحة  
الحرام التي تركتها الحروب فيما بعد ما كنا نفكر بها.. وما  
كنا ندري أن الأشرار والألغام ومصدات النار مخبوءة في  
عصب الكون.. كنا نعلم.  
قلت لها: ليكن لنا الهواء كله والنور كله والليل كله  
والأفاق كلها.. والسماء.

### -3-

النجوم كانت بعيدة.. السماء موسيقى سكنت.  
والعجرية بعريها المتمرد الأبيض في برد الدالية راحت  
تصلبني.. تحتوي مساء العافية، وكل مساء سيأتي.. حلماً  
تصير.. حنيناً غائراً كطين النهر.. مستحياً غاوباً، لا أقدر  
على الإمساك به إلا بعينيك سهي.. في فائض العسل  
والنبيذ الطافح على ساعديك ورعشة الحرية العصية.. هذا  
الفرار منك.. إليك، و"الحرية أنت" قلت لها. وكنت غراً  
في تمزق المراهقة ورنين صوتها يرهقني.. أيقونة كانت

تحت شجرة التوت.. قارورة خمر تتملّ دمي حتى هذه الساعة.. سهى هيا.

قالت سهى: أحقيقة كانت؟

قلت: موتاً كانت.

قالت: وأنا؟

قلت: هيا.. سأصرخ.

وصرخت: أحبك سهى.. أحب قافلة العجر تلوح في أفق نظرتك، وهذا الخبل وأنت تغرقين بالضحك.

وبالضحك تغرق سهى ترفاً أو خجلاً تبوح بطفولتها.. هكذا كلما تشطح وهي تمشي كأن الماء يغمر قدميها.. طفلة تبعثر أحلامها في الريح وتملأ صباح الأطلال بأنفاسها.

في صباح الخواء ذاك لم يتركوا شيئاً.. حتى الخرق أخذوها، وعيدان الحطب وأوتاد خيامهم.. لا شيء للذكرى سوى مذاق الدهشة من حليب ساقبها.

ربما كنت أختها الصغرى سهى –عجربة النجوم البعيدة تلك التي صيرت السماء موسيقى أراها إذ فاجأت وقاحتي.

-ماذا لو.. أيتها العجربة.

-تعال.

قالت وجرتني، والشمس تسقط حمراء خلف الدالية. عبرنا من ثغرة في السياج.. خضنا مستعمرات الحلفاء أنا وهي وحمارها.. فكرت إن لم يكن هناك من رأنا.

قالت لي: لا تخف.

قلت في سري: هي تقرأ الأفكار إذن.

قالت: تلك هي حرفتي.

ضحكنا معاً.. ثم...  
على مهل تعرت لأصحو على رجولتي.

#### -4-

العُجْر روى سنوات ما قبل الدم والرعب والبكاء..  
تموج الأخضر حول راحلة العمر ورشح الموسيقى.. ندى  
العافية على أزهار البرايا قبل حلول موسم الغبار.. المشهد  
الواسع وراءك سهى.. المشهد الغافل عن صدى طبول  
الحروب الآتية.. هدير القطار المارق في الضياء يحجب  
دائرة العُجْر، وحتى تعبر آخر العربات يكون المنظر كله  
قد تبدل.. العُجْر في حلة جديدة، والحمير توحى بأغنية  
أخرى للسلام..

وكنا نغني -سهى- .. يتلاحق التصفيق بعد رعد  
الربيع.. نقول: ترابنا سيحبل بالفطر والكمأ والخصب،  
ونبقى نغني، ولا نخاف.. وكنت خائفاً، قالت:

-الحرية أن لا تخاف

الحرية أنت -سهى- .. الخبل الحلو يشدني إلى  
الأشياء، والأشياء موسيقى تغلغت في الضوء والهواء  
والأماد والأرصفة والواجهات، وهؤلاء العابرين خلل  
حلمي/حريتي.. في بهجة حضورك  
-سأعلمك الجنون.

وكنت مجنوناً في انتظارها...

#### -5-

وجاءوا.. سنة بعد أخرى، قوافل من شجن، يغنون،  
وتشتعل سيقانهم رقصاً وحرية.. يبيعون الخناجر وأسنان  
الذهب، ويستجدون الخبز، ويقرأون بخت الذين لا بخت

لهم.. يقايضون الخبز بالأحلام.. السادة المطلقون للأحلام هم، والمتحررون أبداً من سطوة الدراهم. وذلك الشيخ ذو النظرة اللامعة صرخ بامرأة ناولته قطعة معدن لاصف.

-أريد خبزاً يا امرأة.. الفلوس لكم.. الفلوس ملعونة.  
كم انتظرتها امرأة مساء الجمرات تلك.. المرأة التي في دوامة رائحتها نسيت أن أسألها عن اسمها، وبقيت أشم الرائحة كلما حل العجر في جنوب المدينة، أو هاج طائر في سكون الليل.  
استوقفت الشيخ الذي رفض الفلوس ورضي بالخبز  
ملاً.

-يا عم، لم لا تأتي تلك المرأة؟  
احتواني الشيخ بألق عينيه الفرحتين.  
-أية امرأة يا ابن أخي؟

-تلك التي...  
ضحك الشيخ ووضع يده على كتفي.  
-أحمق من يعشق وهو سجين.  
-أين هي؟  
- بل أين أنت؟

تركني وهو يصيح:  
-أريد خبزاً.. الفلوس ملعونة.  
ربيعاً بعد آخر كان السجن يضيق، والحنين يغدو وجعا، وطائر ذلك المساء ينأى حتى رأيتك "سهى"،  
وعثرت على وطن العجر في استرسال شعرك، وفي غواية الأفق إذ يحتفي العجر بجنونهم، وترقص تلك المرأة البعيدة حد الهلاك.

كيف لي أن أصدق من غير أن أموت؟  
كيف لي أن أصدق إنك أنت الأخرى لحقت بالعجر إلى

بلادهم التي تأنف من أن تحنط في الخرائط.. بلاد حدودها  
الهواء كله والنور كله والليل كله والأفاق كلها، والسماء.

- 6 -

وتسللت -سهى- إلى ما وراء الأشياء كأنك كنت  
كائنة من حلم خرجت من مخمل حلم لهنيهة هي ما لبث  
الحلم وعادت ثانية إليه.

أخرى بمجسة خارقة في صفحات الكتب التي قرأتها  
ومساند المقاعد التي جلست عليها أبحث عن ملمس  
أصابعك علني أحتويك مرة أخرى وأعيد تكوينك .. علني  
أخبئك في قرار مكين هو من خاصتي، ولا أدعك منه  
تقلتين.

غير أنك تماديت - سهى - .. جرثومة العجر  
استيقظت في دمك فتواريت .. ضقت ذرعاً بأهوائي  
وأحلامي .. لم تكفك مديات الحلم التي رسمتها، وفضاء  
العشق الفسيح الذي تصورت أن لا نهاية له .. كيف قدرت  
على تخطي لا نهاياتي .. عرافة العجر الجميلة لما تلمست  
خطوط كفي في الظلام قالت:

- ستتعبك غواية النساء، وستنزلق الأرض أبداً من  
تحت قدميك.

ساعتها كنت قد بارحت لتوي هول النشوة .. انتابني  
الفرع.

قالت: ذاك قدرك فعشه بحرية.

الحرية تشظت في كرنفال القنابل، وحلقت سهى مع  
بقية الطيور الناجية، والقطارات غيرت مساراتها، والعجر  
تفرقوا متكررين للربيع الذي بات يشيخ، وأنا تشردت في  
قفار المعارك .. نذفت ذاكرتي، ونثرت أحلامي مع  
الرصاص .. عبأت كواييسي بالأنين وعواء الجروح  
والرؤوس المقطوعة، وتسربلت بالخوف.

- 63 -



كلما استعدت صورتك -سهى - أراك تحت سماء  
عريضة... الأرض مفتوحة لهواء وضوء يسرفان في  
اللعب، والعشب زغب يستطيب عري قدميك، والزرقة لا  
تكف.. لا تكف..

سهى.. تحاصرين صمتي الهائج بقلق عينيك.. بنزوة  
العجر الرحل.. بالشغف الرهيف يصلك بالأقاصي كما لو  
كنت تخترقين بي/ معي حواجز الليل والضباب وأسوار  
المدن اللامرئية ومخافر شرطة الحدود تبغين زما لا  
يروؤص وصهيل حلم يبهجك التعب الذي يخلفه في ما وراء  
الجسد.

انتظرت بين حرب وحرب قافلة العجر من دون  
جدوى، وانتظرت بعد حرب وحرب ولم يأتوا..

كان آخر الربيع وضجة زراير الفجر تدفعني إلى  
جنوب المدينة.. رايت امرأة على حمارها تعبر ربوة السكة  
الحديد.. كانت تعبئة من سفر أو عمل أو هم عميق.. كانت  
شاردة البال لا يثيرها وجودي ولا تأبه لقطار ضال قد يقبل  
في أية لحظة ويهرسها.

في دخيأتي قلت: مذ انتهت حروبنا المجيدة  
والقطارات لم تعد تأتي.

ومن غير أن تلتفت إلي صاحبت: يا هذا.

اقتربت بوجل واضطراب.. هالني الظلام الشاسع في  
عينها.

قالت: أيها التعس.. العجر لن يجيئوا ثانية.

وقبل أن أقول أي شيء لكزت عنق حمارها فابتعد بها  
وهي تتمتم أو تردد كلمات أغنية حزينة. ولعلها كانت تلعن  
وتستثم.. ووجدتني ألعن، وأستم.  
(1998)

## شاعر

"إلى الشاعر علي فرحان"

ساعات مضنية استغرقتها المرافعة.. كان في قفص  
الاتهام، وكانوا في الطرف الآخر، خلف منصتهم الفارسة،  
قضاة ثلاثة بجلابيب سود.. بغتة قال أحدهم:

-وتدعي أيضاً أنك شاعر.

اعتراه الذهول فلم ينبس بكلمة.. أول مرة مذ أوقفوه  
وراء القضبان يشعر بالعجز عن الكلام.

علّق القاضي الثاني ساخراً.

-هل لك أن تبرهن لنا أنك شاعر؟

قهقه القضاة الثلاثة، أما المتهم فقد أمسك الخدر بفكه،  
وتهدلت شفته السفلى.. رفع يداً مرتعشة إلى فمه وكان بين  
أصابعه سيجارة... ودّ لو أنّ بين أصابعه سيجارة حقاً،  
يعبُّ من دخانها وينفته في وجوههم، بيد أن يده سقطت إلى  
جنبه، ثم أخذ يسعل.. هنا صاح القاضي الثالث:

-ما أنت إلاّ دعويّ سافل.. خذوه.

اقتاده رجال غلاظ إلى زنزانة مظلمة رطبة.. في  
الزنزانة أحس بكينونته مترعة بالشعر حدّ الغليان.. حد  
البكاء.

بعد لأيٍ عثر في قاع جيبه الفارغ على قطعة صغيرة  
باقية من قلم رصاص خط به على الحائط قصيدة سمّاها  
(أشجان البنفسج).

مات الشاعر فظلاً الشعراء السجناء نصف قرن في  
مرورهم الاعتباري على الزنزانة تلك، يقرأون (أشجان  
البنفسج) ويبكون. وعندما صدر أخيراً قرار بهدم السجن  
ونقل السجناء إلى مكان آخر، اندفع بلدوزر يقتلع حيطان

السجن.. عندها تناثرت كلمات القصيدة بين الأنقاض.  
وفجأة من بين الأنقاض انبجست آلاف من أزهار  
البنفسج الرائعات.  
(1993 )

٤٦٦

## رجل الحجر

منذ متى أنا هنا؟ لم أعد أذكر، فتلك الأشياء الغامضة الحلمية لا بد أن تكون قد حدثت في زمن غابر، بعيد.. أحسني مشدوداً إلى المقعد الحجري والمنضدة الحجرية، والضوء الشاحب، والرائحة الحامضة للأشياء.. ما أعيه هو فقط هذا الانشداد "هنا"، و"هنا" هي الأخرى معلّقة كأنها اللامكان.. أفي بار أنا؟ أم في كهف عتيق؟ أم في مرقص؟.. ثمّة حلبة للرقص ولكنها خالية.. ربما كنت في مشرب مرفأ منسي.. في أية بلدة؟ في أية قارة؟ لا أعرف.

صدع يتعرج بدءاً من مقدمة اللسان ويضيع في تيه الدواخل العميقة.. صدع وجيع كما لو أن سائلاً حارقاً يتدفق عبره، وصداع مشاكس ينبض في ما وراء الجبهة.. خلف العينين مباشرة.

في زاوية ما جلبية.. صوت أقداح تتكسر أو زجاجات نوافذ.. صاحب المكان -أهو صاحب المكان حقاً؟- بعينه الثعلبيتين لا أجده مكثرثاً. وأغنية مشروخة تنبعث من الزاوية ذاتها، أو من زاوية أخرى.. تبدو الزوايا هنا كثيرة.. مخابئ مظلمة لعل فيها بشراً يمارسون لعبة التواري.. آخرون.. لا شك أن هناك آخرين.. الآخر الذي

هو طيف يتسرب كلما حاولت التقاطه أو الإمساك به.. أية  
هوة مرعبة هذه التي تربك التواصل بيني وبين الآخر؟ من  
هو الآخر؟ أهو أناي المشطورة أم مخلوق الكابوس؟

أفرغ كأسي السادسة في جوفي ثم السابعة.. أظن أنها  
السابعة ثم الثامنة.. أو هي العاشرة؟ يصرخ أحدهم عند  
قفاي تماماً.. صراخه جاف وممزق.

ماذا يريد؟

ألثقت.. لا أبصر أحداً.. أغمض عيني ثم أفتحهما..  
الضوء البارد ينقض علي بمخالب قاسية.. النادل يقترب  
مني.. أضيّق ما بين جفوني لأعينه ملياً.. لأوجه له.. دائرة  
شاحبة بهالة سوداء وثقب أشد سواداً.

-نعم؟! -

-ماذا؟! -

-ألم تناديني قبل قليل؟ -

-لا.. -

-كيف.. وهذا الصراخ؟ -

-لم أكن أنا.. -

-ليس في هذا الجانب من المكان غيرك.. -

-أنت واهم.. -

-أنا آسف.. -

أوقفته وهو يهجم بالابتعاد..

-حسن.. أطلب لي زجاجة أخرى من فضلك..

راح يهز يده.. هكذا خيل إلي.. أيس تخفف بي؟  
أمسكت القدح وألقيته على الأرضية الحجرية..

هاهو صاحب المكان - أو من اعتقدته كذلك - واقف  
عند رأسي..

-إن لم تكف سأخابر الشرطة.. -

-سأدفع ثمن القدح.  
-ستدفع ثمن كل ما كسرت.  
-لم أكسر غير هذا القدح.  
-أمل أن تنام أخيراً في مركز الشرطة.  
ألوذ بالصمت.. أضع جبهتي على طرف المنضدة..  
أحس بشرخ لاذع يمتد من سقف حلقي وحتى مجاهل  
الأحشاء.  
-أنت.. أنت..، لم تحرم نفسك لذة اللحظة.. كل لحظة؟  
تنفذ هذه الكلمات إلى وعيي مع وقع نقرات أصابع  
قوية على المنضدة.. أرفع رأسي.. أجدني إزاء رأس كبير  
وانف ضخمة وعاصفة من شعر أشهب كثيف.  
-مقابل كأس أبيعك حلاً.. هل تشتري؟  
-جلست إلى مائدتي من دون استئذان.  
-أتريد أن أغادر؟  
-لا... لا.. ابق.  
-هل تشتري؟  
-أجل.. قل لي ما هو هذا اللحم؟  
-ليس قبل أن أكرع الكأس.  
يعب الكأس في جوفه.. يقهقه عالياً.. ثم ينفث آهة  
ساخنة.  
-أغمض عينيك، وتخيل.  
-أتخيل ماذا؟  
-أغمض عينيك.. أغمضهما.  
أغمضُ عيني.  
-تخيل أن هذه المدينة لك، بشوارعها وقصورها  
ومناجرها وناسها.. حتى النساء كلهن لك.. تخيل.. تخيل..

تخيل.

لست قادراً على التخيل، وصدى كلمة "تخيل" يتردد في أذني ثم يتلاشى شيئاً فشيئاً.

بغثة تتكشف القتامة الراكدة عن نور خاطف.. نور ساحر، مكور كما الوجه بعينين أمتنين وشعر كأنه نيزك مسترسل.. وهج هائل عظيم يقوّض الظلمة المعتمة لهنيهة، ثم يغور، وإذ ذاك يرن صوت امرأة.. صوت هارب من ساعات لم تحل بعد.. عذب يهدد الضجيج..

يطبق الظلام أثقل مما كان، ويتفجر الضجيج.

أفتح عيني.. أفاجأ بالرجل – بائع اللحم – قد اختفى، وجلس في مكانه رجل آخر.. رث بلحية شعثناء ومحجرين معتمين.. إنه يحدق فيّ ببلاهة وفي حجره هر نائم.. كفاه المعروفتان تقبضان على الهر بعناد.

لماذا يحدق في هكذا؟ أهو حقيقة أم تراه من شطحات الخيال، تسرب خلسة من جمجمتي ليناكدي.. أئنشاب.. تمط السخرية شفثيه بشكل مقزز.. أيعرفني؟ يظهر أنه يعرفني.. أأعرفه؟ أركز النظر فيه.. ليس بمقدوري تكوين صورة واضحة عنه. ملامحه تغيم وتتداخل.. أهو الرجل نفسه – بائع اللحم -؟. ولكن من أين جاء بالهر؟ أكان الهر نائماً في حجره منذ البدء وأني ببساطة لم ألاحظ ذلك؟. ولكن كيف؟ إن شكل هذا الرجل يختلف عن شكل بائع اللحم.. هل بإمكانني تذكر شكل بائع اللحم؟ أحاول استعادة ما كان عليه وجهه من دون جدوى، غير أنني أستطيع الإقرار بأن هذا الرجل ليس هو ذلك الآخر – بائع اللحم.. هل أستطيع حقاً؟.

لماذا لا أسأله..

ثم ماذا؟.. ماذا بعد التخيل؟

لا يرد.. ربما كان مصاباً بالصمم.. أهو ضرير أيضاً؟. لا أكاد أرى عينيه، بيد أنه يحدق في.

-أنت يا أبا الهر.. قل لي. أتعرفني؟

لا يرد.. أصرخ.

-بحق الأنبياء ماذا تريد؟

لا يرد.. أهمس.

-أعتقد أنه من الممكن أن نتفاهم.

لا يرد.

-أترغب في شراب أو طعام؟

لا يرد.

-حسن.. ابق حيث أنت.

ويخطر لي أن أترك المكان، ولكن إلى أين؟ ألن أطلب بدفع الحساب، وأنا جيوبي خاوية؟ هل أعرف أحداً في مكان آخر؟ هل ثمة من يقبلني في مكان آخر؟ وتملؤني هذه التساؤلات بخوف مبهم. وأفكر: أنا مستمر في البقاء هنا تاجيلاً لكارثة محققة ستقع.. أظنها ستقع.. وربما لا تقع.. من يدري.. إلى متى سيمهلونني هكذا؟ أود لو أن الزمن يتوقف، أو أن تحدث معجزه خارقة.. أن تمتد يد خرافية مثلاً وتنتشلني من هذا الحصار. لماذا لا أجا إلى حل وسط؟

لأبحث إذن عن حل وسط.. لأجرب أن أنام.. أنام!!  
خطوات تتري، ولا أثر على ضباب الذاكرة.. من أين تتدفق الكلمات إذن؟ أي عالم دفين ذاك الذي يرقد بشسع الموت ويفلت كما الأحلام -بعض أسراره حين تثقل عليه. وها أنذا أشعر أن بين (الآن) و(ما سيأتي) و(ماضى) مسافة لن تخرق إلا بسلطان.. وبين (الآن) و(ما سيأتي) فخاخ لن يقطعها إلا جسر من رؤيا.

وعلى حين غرة يجتثني من استغراقي صوت حلو يسري في دمي سرباً من الرعشة.



- امرأة في الخارج تريدك.  
وجهه الدائري من البلور، وشعره مقصوص وممشط  
بعناية أشبه ما يكون بالملاك.

- امرأة.. أية امرأة؟.. أي خارج؟

- تقول أن اسمها سناء.

- لا أذكر امرأة بهذا الاسم.

- إنها واقفة تحت المطر.

- أتمطر؟

- المطر لم ينقطع منذ أشهر.. ألم تخرج من هنا منذ  
أشهر؟

يكركر بجنل.

- سأخرج معك لأرى.

- حسابك مدفوع.

قالها النادل وهو يحرقني بنظرة معادية.

- من دفعه؟

- لا عليك.

- الباب من هنا.. من هنا.

يدلني الطفل على الباب.. أخرج.. يهاجمني نور  
صارخ كأنه كان في انتظاري لهذه الغاية.. أغلق جفوني  
من هول سطوته ثم أفتحها.. أفاجأ بأن النور قد استكان  
تماماً، وأن الرذاذ يهمني بتودة، وهي واقفة.. امرأة باسقة  
كأنها قادمة من أفق قدسي.

أية ابتسامة مذهلة هذه التي تشعشع على شفثيها؟..  
يдахمني الدوار.. أضغط على صدغي بأصابعي.. أرفع  
رأسي.. تبهرني طلعتها وهي ثابتة في احتفال المطر،  
وخلفها تماماً ينتصب جدار مضاء وقد انبثق منه شاب  
يافع، جعل يحدجني بتحد.. يتهيأ لي أنه سيصرخ بي.. إنه

على وشك أن يثب وقبضته مضمومة يخفي فيها شيئاً ما،  
أتوقع أنه سيفذفه.

وتركض القشعريرة في سراييني.. ماذا لو أنه أطلق  
حجراً وشج به رأسي.. لا أدري لم أشعر بأنه لو فعل ذلك  
فإنه سيخلصني من هذا الصداع المقيم.. إن قدراً من الدم  
الفاسد سيخرج بلا ريب من الجرح المرتقب.

- هل ستقف هكذا إلى ما شاء الله.

ليس هذا بصوت آدمي، بل هو نداء آت من أعماق  
نقية.. ينفرج دمي ليجيها إلا أن جسماً غريباً يمس رجلي  
ويجعلني أجفل.. إنه الهر.. هل تمكن من الإفلات من  
قبضة الرجل الرث، أم هو الذي أطلقه؟ هيئته لم تكن تدل  
على أنه من المحتمل أن يطلقه.

يمرق الهر عبر الشارع مسرعاً.. كم هو جميل بشعره  
الأبيض الكث وأذنيه المنتصبين وهو يجري ويتسلق  
الجدار المضاء برشاقه بمحاذاة الرجل الذي يبدو وكأنه  
على وشك إرسال الحجر باتجاه رأسي.

- هيا لنسر أم أنك تعودت على الكسل.

- من أنت، سيدتي؟

- عجباً.. أتمزح؟

- قطعاً أنا لا أمزح.

- ألا تذكر؟

- ماذا؟

- سناء.. أنا سناء، ولحظتنا الرائعة في تلك الرحلة.

- أية رحلة؟

- عبر البلاد.. أوه، كم غدت ذاكرتك ضعيفة يا عاصم.

- أخشى أنك طلبت الرجل الخطأ.

- يا عاصم.. يا عاصم.. أنت الرجل الذي أقصد.

-ماذا تريدین؟-

-لنسر أولاً.

أتفرس مرة أخرى في الشاب الیافع على الجدار..  
أتمنى لو أنه يشج رأسی فعلاً بالحجر المخفی بین  
أصابه.. إن هذا الصداع اللعین سیزول عني کلیاً إذا ما  
فعل ذلك.

-هیا.. مالک؟-

-كان ینبغی أن تكون معي مظلة.

-على العکس.. أهنأک أجمل من السیر تحت المطر؟

جرس صوتها یخترق مساماتي إلى حیث البؤرة  
المتحکمة بالدوار.. أنا أشبه بمن یقیق من الغیوبه..  
الشارع یکتسب حدوده وحلته، وینفسح المدى أمامي  
واضحاً إلى حد ما.. السیارات قليلة، وكذلك البشر، إلا أن  
هنأک سیارات على أیة حال، وكذلك بشر.. أشعر أن لي  
قدمین رغم ارتبأک خطواتهما ستعینانني في الطریق،  
وأروح أجرجرهما بصعوبة.. أراوغ فیهما النقل العصي  
وأنا أترنج كأنني أتعلم المشي من جدید. وعلى امتداد  
الرصیف تتوزع برك صغيرة من میاه المطر في أغوارها  
تتراقص المصابیح.. وتبدأ سناء تتكلم، والمطر ینهمر..  
یتغلغل في العروق شيء من الانتعاش.. أنا على استعداد  
أن أمضي العمر كله هكذا، أسیر معها وهي تتكلم تحت  
المطر.. تكلمي ولیستمر المطر في الهطول حتى یزال  
الصدا وهذا الصداع.

صوتها یقتنص انتباهي إلى أن یخطف الشاب الملمثم  
في ذاكرتي، وفي معاودته المرور یرشقني بالنظرات  
الغاضبة عنها.

یطالعنا قوس شامخ، مدجج بالأضواء الملونة، یطوق  
الشارع بحنو.. أف كآن قوة عارمة تشل أطرافی.. إنه  
الشاب الیافع.. هنأک، في قلب الذروة من القوس بالعینین

الجرينتين ذاتهما، والقامة المشدودة، واليد المستعدة لقذف  
ما تحمل.

تقف سناء هي الأخرى.. نحن مبللان تماماً..  
وتترجرج الصورة ثم تتوضح.. تترجرج وتتوضح، وثناء  
تؤثر السكوت، وربما هي في انتظار أن أتكلم أنا.

أغلق عيني بقوة.. أحس بضربة مدببة، مباغطة على  
الجبين وبألم نافذ يرجني، وبفورة الدم وهو يتدفق،  
وبفيروسات الصداع وهي تنكفي، وأحدس -فكرة ثابتة،  
جائيلة كعيني سناء تتسلط- "إن أمراً ما غير اعتيادي، لا  
أدري كيف، لا بد أن يحصل".

( 1994 )



## تحريض

مؤكدٌ أنها كانت تتبعني، ومؤكدٌ جداً أنه كان يصرخ  
بي:

- اطلق النار.

أعرف تماماً من يكون، غير أنني تساءلت: من تكون

هي؟ وماذا تريدُ مني؟

أنا لا أبحثُ عن مسوِّغٍ مُرضٍ لجريرتي، ولكنني أقرُّ  
حقيقةً واقعةً... لقد كانت معي دوماً.. إلى جانبي.. قربي...  
في أعقابي، فكلما تَلَفْتُ وجدتها إزائِي، وكان هو  
يحرضني: اطلق النار.

أدخلُ محلاً لبيع التحف، أباغتُ بها تتصنع النظر إلى  
الأشياء، وترنو إليَّ من طرف خفي... أدلف إلى زقاق  
عرضي، تدلف إليه كذلك.. أجلس على مصطبة في ساحة  
النصر تجلسُ هي قبالي.. أقفُ في مواجهة نصب الحرية،  
أتأملُه تقفُ هي أيضاً وتترصدني عن كُتُب.. انحدرُ إلى  
نفق التحرير.. تتحدر ورائي... أخرج من الجهة الأخرى  
فتفاجئني هناك بينطالها الجينز، وقميصها المفتوح من  
الأعلى قليلاً.. أتجه نحو شارع الرشيد تتجه معي إليه  
خطوة بخطوة.

أنتقصد إغرائي؟ أم تستدرجني إلى شرك غامض؟ أم تراها مكلفة بمهمة استخبارية دقيقة؟ أم تحاول دفعي إلى هوة الجنون؟... ولكن .. لماذا؟

هل كانت سيئة النية تلك المرأة الوارفة بحذق عينيها ونعومتها القاسية؟.

سنة أو أكثر ظلت تحاصرني، فأني رمت ضيقت عليّ حدودي.. لكأنها كانت تعرييني أو تفضحني، أو تدبيني.. كانت تلك المرأة الباهرة الصامته تشحني قلقاً وتزيد من اضطرابي، وتجعلني أحس بالاختناق.

لم أسمع صوتها سوى مرة واحدة، أو لعلّ تلك النفحة الرقيقة الباترة كانت محض وهم.

دنت مني حتى لم تبق بيني وبينها إلا مسافة اشتعال وفي ضجة محطة (غربي بغداد)... في أوج احتدام اللغظ وصياح الباعة تماوج ذلك الصوت واضحاً، نافذاً.

- إلى متى هذا الفرار؟.

لكأني صحت لحظتها.. أردت أن أقول شيئاً غير أنها تبددت في ظهور عشرات السيدات الأنبيقات، المسرعات نحو القطار الذي أطلق صفارة الرحيل.

لبثتُ ذاهلاً حتى خيم الصمت. وكنتُ وحدي حين جاءني الحارس:

- ماذا تنتظر؟ ليس ثمة قطار قبل تسع ساعات أخر.

\*\*\*

النهار بعيد، والشمس كاوية، والأشجار في مواجهتنا ملتمة وكثيفة. والذين حولي يطلقون. وكنتُ وحدي جزعاً أشعر بالانهيار فراح يصرخ بي: اطلق النار.

وأطلقت.. رأيتُ الأشجار تلتم أكثر.. كانت تنزفُ خضرتها في الضوء، وبقي يصرخ بي: اطلق النار.

مذ أطلقتُ النار ودمها المتوهج يستحيل إلى حشد من

علامات الاستفهام، ينتهك صحوي وفوضى تخيلاتني من كانت؟ ومن كنت أنا في تصورها؟.. أكانت محكومة بموجّهات قوى خفية تعمل للإيقاع بي؟ أم أن وازعاً ذاتياً كان يدفعها إلى ملاحقتي وتدميري؟

كدتُ ذات مرة أن أجرها من ياقنتها في مساء الأعظمية المزدهم، وفي مرة أخرى فكرتُ أن أصفعاها على وجهها لولا أنني ترددت في مواجهة جمالها الكاسح. قلتُ سأغتصبها، وعشتُ حلم التمرد على جمرات جسدها اللاهب ليالي طوالاً. ولم أفعل... ما كان بمقدوري أن ألمس تلك الفتنة المتمنعة قبل أن أصاب بالدوار.

\*\*\*

قال المحقق ساخراً:

- لم نجد في المكان جثة امرأة، ولا أثراً دامياً، ولم يبلغ أحد عن اختفاء امرأة بالمواصفات التي ذكرت أيها الدعيّ المخبول.

قالها وأمر بحبسي ثلاثة أيام لتقديمي بلاغاً كاذباً وإزعاجي السلطات.

خرجتُ من غرفة التوقيف حائراً. ومن ساعتها، والمارة في الشوارع كلها يسلقونني بنظرات الاتهام، مستنكرين جريمتي .. بيد أن المحقق ما يزال لا يصدق.

أمسكتها من معصمها فأذعنت... مشيتُ فمشتُ ولم تمنع.. نظرتُ إليها.. كانت تثبتسم.. انفردتُ بها تحت جسر الجمهورية، وتهياً لي أنها كانت مسرورة.. كان الضوء شحيحاً.. أغمضت عينيها وانفرج فمها.. أخرجت مسدسي وصوبته نحو جبينها.. فتحت عينيها.. استحالت الابتسامة على وجهها إلى تعبير كالح.

صرخ بي: اطلق النار.

وصاحت هي: لا.  
قلتُ للمحقق: كان يصرخ بي " اطلق النار".  
قال: من هو؟  
قلت: هو .. هو..  
نفذ صبره، وكاد يضربني .. وأخيراً سأل:  
- والمسدس؟! أين هو المسدس المزعوم؟  
- المسدس؟!!!

حاولتُ أن أتذكر من أين حصلت على المسدس؟،  
وأين خبأته؟ وإن كنت أضعته أم لا؟ حاولت أن أتذكر ما  
إذا كان معي يومها مسدس حقاً؟.. الحقيقة أنني لم أستطع  
أن أتذكر أي شيء عن المسدس.. شيء واحد أستطيع  
تذكره الآن، وهو، أنه كان يصرخ بي طوال الوقت بإلحاح  
قاسٍ: اطلق النار.  
( 1997 )

❦❦❦



# أحابيل المساء

## .1.

خمس دقائق، لا غير، تفصلني عن درجة التوقد.. عن التحول والخلاص.. سنأتي.. لا شك أنها سنأتي، فهي التي اختارت الوقت والمكان.

- موعدا قرب محطة الوقود.

هكذا اقترحت.. لا يهم.. المهم أنها سنأتي، ستطل من أعماق الزحام بقوة الوهج الذي فيها، وها أنذا بكليتي متأهب لأن أنلظي!.

## .2.

قد أكون على يقين قاطع من أنها سنأتي، ولست في ريب من الوقت والمكان، فهي التي أصرت.

- انتظرنني ، قرب محطة الوقود.

- غريب .. لم؟.

كركرت.

- من أجل أن تكون البداية حريقاً.

اللهب في صدري يتحسرج.. يتحفز للانقراض على

لوثة الماضي وهشيم غابته الدكناء.. عبر الزجاج الأمامي  
للسيارة أراقب المارة، أو / أترقب النار التي ستشوق صفحة  
الجليد وتحيل المدينة والعالم.. الأيام والساعات.. المشاعر  
والتصورات إلى ضرام رائع.

### .3.

ساعة فاجأتني:

- ألو .. مساء الخير.

كدت أسقط سماعة الهاتف من فرط الدهشة.

لفحني صوتها بسرى دفناً لاهياً يرحج بلادة الدم  
والخلايا، حتى إذا ضحكت تحطمت أوتان كبيرة،  
وصارت الأشياء غير الأشياء، والناس غير الناس، وأناي  
غير أناي.

داخل سيارتي المركونة إلى جانب الرصيف مازال  
البرد والتوجس، و الرعشة.. رعشة القلب بسبب البرد أو  
التوجس.. ستأتي لتمحق البرد، وتجعل من التوجس أنغاماً  
وتحنوي الرعشة..

ستكون الرعشة ابتهاجاً وأغنية.

مازلت أرتعش، والدقائق الخمس انقضت، والزحام  
جليد متحرك تحت بقايا الأشعة المراقبة لشمس تنحدر.  
قد تأتي .. أو لا تأتي.

### .4.

أغمضت عيني، ولم أفتحها إلا بعد مرور خمس  
دقائق أخرى. قلت في سري: ((خمس دقائق ليست بمعضلة  
في مقابل ذلك الضياع المديد لسنوات العمر)).

ستأتي.. أريدها أن تأتي.  
أيعقل أن تخلف مواعدها الأول معي؟ شهور طويلة  
وهي تتمتع .. توغل في اللعب .. تمسك الطرف الآخر من  
الخيوط المتوتر، وتظل بعيدة مثل حلم من زمن الطفولة.  
بيني وبينها مسافة تردد وانجذاب، وأسئلة محيرة،  
ورغاب صاهلة، وأشياء قابلة للاشتعال.. بيني وبينها  
عصر من الحروب، وبقايا شتاءات أليمة في الروح،  
ووعود ارتحالات لم تتم وكل دقيقة تمر طوق يصغر  
ويضغط ويهرش العظام.. كل دقيقة فتك لا يرحم، وخيبة  
واستعادة للخسارات.

- "ستكون هناك" قالت؛- "قبلي حتماً". أكدت؛ -  
"وسأجيء وأفتح باب سيارتك وأدخل". ضحكت.  
"فتنطلق". هنا استحال ضحكها إلى همس كالفحيح..  
كاللهات بعد الشبع - "وحينها ستكون الدنيا ملك يديك".

صوتها مشحون بكهرباء صامتة يجتثني من ليل  
الزنزين والهوام وشرك الأسئلة المنهالة مع الشتائم، ومع  
الصفعات والركلات والبصاق.. دفء صوتها وسلام  
شاسع.. نكاية بتلك الظلمة المزحومة بالصقيع والوجع..  
رجاء صوتها.

- سيكون البدء حريقاً.

- وماذا بعد الحريق؟.

ماذا قالت؟ لست متأكداً.. لعلها قالت "الشتاء" أو  
"الشفاء"، أو تراها قالت "الشفاء" لعلها تلفظت بكلمة أخرى  
لم أستطع التقاطها.. همهمة منغمة وانقطع الخط،  
فشهقت.

أية نبرة واثقة رصينة جسور تلك التي تمتلك؟ كيف  
سيدتي بعد هذا المرض الطويل الغامض، الاعتباطي،

العسير، المرهق، الفاجع.. كيف؟ وبدأت أدرك "كيف؟!".  
ستقبل، في أصابعها أوار اللففة، والوعد الموصول  
بالنعيم.. ستفتح باب السيارة لتزيح البرد والوحشة  
والارتياب.  
هل ستأتي؟

## .5.

هي مجمرة الحنين في ليل المطر والانكفاء، وإن أنت  
سأخرج من جلدي الفار من عرس الشيطان.. جلدي المتقرن  
الذي ملّ الرماد والسخام وعطن الزوايا المعتمة..  
قلت لها: - أنقذيني من ذاكرتي.. ذاكرتي أرض  
خراب.

اعترضت: - لا .. بين الذاكرة والأحلام أنت.  
قلت: بين الذاكرة والأحلام ليس إلا التيه.  
قالت: راوغ الموت لتكون .. بين ذاكرة حاضرة  
وأحلام تمور ينبغي أن تكون. وإلا ما جدوى مجيئي؟.

## .6.

كالزقزقة كان صوت الباب وهو يفتح.. كالسحر  
يقربك من حالة الموت قبل أن يرتد بك. وشعرت أن  
روحي تخطف وتلوب.  
التفت.. ياه.. كدت أصرخ.. من تكون هذه المرأة  
الضاجة بالألوان والغرور؟!.. بإصبعها أشارت إلى الأمام  
بعد أن جلست باسترخاء إلى جانبي.. يا لوقاحتها.. كل ما  
فيها فائر واستقزازي ومريب  
- كيف تجرؤ على البقاء هنا؟ عود ثقاب مهمل يمكن  
أن تفجر محطة الوقود.

- من أنت؟  
- عجباً.. شهور طويلة وأنت لا تكف عن المطاردة،  
والآن تقول..

- لست هي؟

- لست من؟

- تلك التي وعدت أن أنتظرها قرب محطة الوقود.

- أحمق.. سر

ثم صارخة: - سر.. سر..

راحت تحتني.. ما كان علي إلا أن أرضخ.. عاظت  
السيارة وهي تثب. كما لو أنني هارب من الوحشة والبرد  
والأسئلة إلى اللامتعين المحجوب، المجهول.. إلى ما وراء  
الآن، وهنا.. بعد ساعة أو حين من الدهر.. هناك، في  
الضباب والدوامة والجرح.

قالت: ما زلت كما عهدتك تستجير من الوهم بوهم  
آخر.

- أتعرفيني سيدتي؟

الظلام محتقن بالزمهرير، والرماد على لساني.. في  
حلقومي.. في الشرايين مخلوط بدمي.. رماد ماسخ، فج  
بارد، وخانق. استدرت بالسيارة حول ميدان خال من  
المارة والسيارات وتوقفت.. أبصرت كتلة مرعبة من نار  
تنمايل مثل درويش هائم.

- ما تلك؟!

- محطة الوقود.

- من أحرقتها؟

- سيده وهمك.

- أخبريني.. من أنت؟

- ها أنت مصر على التكر لذاكرتك.

فكرت أنني ربما كنت ضحية مقلب أعدته لي المرأة /  
الحلم - امرأتي - مع صديقة لها .. صحت بها:  
- أرجوك أخرجي.

هزت رأسها، ثم راحت تفهقه.. تطاير رذاذ السخرية..  
الرذاذ رشق وجهي.. تولاني غضب هادر.. رفعت يدي  
لأصفعها.. تراجعت برشاقة.. فتحت الباب وانزلت إلى  
الخارج وهي تضحك.. وبقي صدى ضحكتها يتردد بعد أن  
أخفاها منعطف أول شارع فرعي.

وألفيت كفي يتقلص في الفراغ ومفاصلي تتشنج..  
تهالك جذعي على المقود وارتطمت جبهتي بزر المنبه  
فانبعث صوت حاد.

## .7.

بعد لحظات، أو بعد زمن طويل - لست متيقناً - سمعت  
نقرات أصابع على زجاج النافذة الجانبية.. التفت برأس  
خاو... رأيت امرأة منحنية توميء لي كي أفتح الباب،  
ووراءها كانت محطة الوقود عامرة كما عهدتها، وأنا في  
مكاني حيث أنتظر امرأتي.

كيف عدت؟ من أعادني؟.. حركت أصبعي بإشارة  
رفض واعتقدت أنها من بنات الهوى.. لم ترتدع..

فتحت الباب ودلفت إلى الداخل.

كان شعرها أحمر صارخاً، وطلعتها جامدة لا تخلو  
من قبح.

- أنطلق.

- من أنت.

- ستعرف في ما بعد.. انطلق.  
- لماذا ؟  
- محطة الوقود قد تحترق.  
قلت في سري ( إنها مجنونة).. همست ببرود:  
- أنت المجنون .. انطلق.  
تذكرت المسدس الذي أخبئته في درج سيارتي.. خطر  
لي أن أسحبه وأهددها به لتغادر.. ضحكت بتهكم ..  
ضحكت طويلاً فلم أفعل.  
انطلقت، وبعد قليل سمعت دويماً هائلاً، ورأيت قطعاً  
نارية تتطاير وتسقط في أماكن مختلفة من المدينة... قالت:  
- ألم أقل لك ؟  
أوقفت السيارة وصحت بوجهها:  
- أنت التي أحرقت المدينة.  
وهممت أن أمسكها من ياققتها فتهاتوت يدي في  
الفراغ..  
لا أدري كيف اختفت المرأة؟

## . 8 .

نظرت حولي.. أمسى الشارع خالياً، وتحت أعمدة  
النور الشبحية كانت الكلاب والقطة وحدها تخطر..  
المدينة نائمة، ومحطة الوقود غارقة في الظلام.. أدركت  
أن امرأتي لا بد أن تكون قد أخلفت وعدها تاركة إياي للبرد  
والكوابيس. ومن يدري فلعلني لم أستوعب جيداً كلماتها  
التي بها حددت الزمان أو المكان، أو الزمان والمكان معاً..  
حاولت أن أتذكر تقاطيع وجهها.. لون عينيها.. تسريحة  
شعرها فلم أفجح.. كانت هي الأخرى قد إنسلت من سراديب  
ذاكرتي وتبددت .. نظرت إلى ساعتني.. كان الوقت قد

تجاوز منتصف الليل.. أدرت مفتاح التشغيل لأغادر  
المكان وأنا محبط وبردان وعلى حافة المرض والبكاء.

تهيأ لي أن امرأة تجلس إلى جانبي بصمت.. لم أجرؤ  
على النظر إليها، وتسلمت على ذهني فكرة أن محطة  
الوقود ستنفجر لتقذف سيارتي في الفضاء.. لثوان صار  
هذا الأمر حدساً مستحوذاً، ملحاً فوجدتني أضغط بقدمي  
على دواسة البنزين بقوة، وأجعل السيارة تسرع بي في  
الطريق المعتم.. طريق الهروب.

راحت سيارتي تدور حول محطة الوقود.. صار  
الشارع دائرة مغلقة حول بنائها الفسيح المضاء.. ربما  
أضيء تواء، والمرأة التي معي تضحك مني مستخفة،  
وباحتقار تمط شفيتها.

بيد مرتعشة عصبية فتحت الدرج وقبضت على  
المسدس وصوبته نحوها وضغطت على الزناد.

لم تكن ثمة امرأة، ولكن محطة الوقود انفجرت بدوي  
هائل، وزحفت النيران، تتلوي وتنز مثل ثعابين مستفزة،  
وأنا في فلكها الحارق المميت أدور.. وأدور.

( 1996 )

٤٥٤



## ليلة الغريب

المقهى فوضى في الضوء الشاحب.. لغط ودخان  
وبشر غارقون.. كلام في الرياضة، كلام في السياسة،  
كلام في الجنس.. وكلام هراء.

فرقعات وألعاب.. صيحات وضحكات، وحكايات  
نميمة.. أما هو - عبد الله - فوحيد، لا أحد يحفل به على  
الرغم من أنه - ومنذ وقت طويل - يجيء قبل الجميع،  
ويغادر بعد الجميع، وكلما أراد الانغمار مع الآخرين في  
سجالاتهم أشاحوا بوجوههم عنه أو قاطعوه وإذ ذاك ينكفي  
صامتاً ليقتضي بقية الليل مثل حيوان جريح يراوغ عبثاً  
ألمه في صحراء مدلهمة خالية.

منذ أسبوع صار رجل غريب يلتفت انتباه عبد الله ..  
رجل وحيد مثله .. يدخل ويقع في الزاوية البعيدة - الزاوية  
ذاتها كل ليلة - كأنه قطعة زائدة أو شيء كان قد فقد  
ضرورته .. عبد الله لم يستطع أن يحدد ملامحه فهو في  
الطرف الآخر وبينهما الدخان الخانق .. أسبوع ولم يلحظه  
أحد سوى عبد الله وربما كان الآخرون يرونه  
ويتجاهلونه ..

كل ليلة ينتبذ ذلك الركن، بنظرات زائغة، وقدح  
الشاى يظل أمامه كما هو لا يرتشف منه شيئاً، فبعد الله

يراقبه وهذه الليلة قرر أن يخرق عزلته ويشاركه أريكته.  
- السلام عليك.

غرغر الغريب بكلمات مبهمة  
- المقهى لا يحتمل .. بل هو الدخان.

هز الغريب رأسه موافقاً، أو ربما امتعاضاً ولم ينبس.  
- لا أدري لم نحن هنا؟ كأن مغناطيساً يؤثر في إرادتنا  
ويسحبنا إلى هنا.

أسبل الغريب أجبانه ولم يعلق بشيء.

ما أدهش عبد الله أن الغريب يقاربه في العمر،  
ولعلهما ولدا في السنة ذاتها. وأنه يشبهه أيضاً سوى أن  
الغريب قد نما لحيته وشذبهها.

حاول عبد الله أن يتذكر كيف هي صورته - ملامحه  
وتقاطيعه - فغام وجهه أمام بصيرته الداخلية.. من العجيب  
أن ينسى الإنسان شكله (منذ متى لم أنظر في مرآة.. أه منذ  
زمن بعيد .. ربما كان أحد أقربائي، أو هو أخي من أبي ..  
أبي كان يسافر شمالاً وجنوباً نائراً بذرته في كل مكان.  
ولم يعد قط من سفرته الأخيرة قبل ربع قرن.. قيل أنه مات  
غرقاً.. قيل إنه قتل.. قيل إنه عبر الحدود ومضى إلى  
المجهول... قيل إنه استقر في قرية نائية على كتف جبل  
وتزوج هناك... من يدري).

ما كان عبد الله - في هذه الساعة - يرغب بالتفكير في  
مصير أبيه.. قال:

- الجميع يتكلمون.. الجميع عدانا.. كلامهم كذب ونفاق  
وسفاهة.

لم ينطق الغريب كما أمل عبد الله الذي فكر أن الرجل  
ربما كان يتوجس منه... سأله:

- وجودي هل يزعجك؟

بإيماء خفيفة من رأسه نفى الغريب أن يكون  
منزحاً.

- إذن يمكننا أن نتكلم .. كلانا وحيد.  
واقفه الغريب بنظرة ساهمة، أو هكذا تهباً الأمر لعبد  
الله الذي أردف:

- وأنا غريب مثلك على الرغم من أنني أعرفهم  
/هؤلاء/ منذ أربعين سنة .

استرسل الغريب بلعبة الاستغراق.  
- لم أتزوج قط.. يخيل لي أنك مثلي لم تلق بعد المرأة  
المناسبة.

بدأ الغريب غائراً في زمان آخر ومكان آخر- في  
شغل - عما يقوله عبد الله

- كأنك صنوي.. كلانا ضائعان.  
بقي الغريب صامتاً.. سادراً في ملكوته الأخرس..  
فكر عبد الله بوسيلة، غير الكلام، يستدرج بها الغريب إلى  
مسامرتة.. استل علبة سجائره وقدم له سيجارة.  
- تفضل.

حرك الغريب يده رافضاً.  
- حسناً تفعل.. الدخان مرض.. لا أدري لم ندمن  
المرض؟

أشعل عبد الله عود ثقاب وقربه من رأس سيجارته..  
انطفأ العود.. حاول أن يشعل عوداً آخر إلا أن علبة  
الكبريت وقعت من يده.. انحنى ليلتقطها فوجدها تعوم في  
بركة ماء صغيرة تحت الأريكة فأحس بالخيبة.  
- كأن الشيطان فعل ذلك.

رفع رأسه مخاطباً الغريب غير أنه تسمر ذاهلاً في  
قعدته، فالغريب كان قد اختفى.

تلقت عبد الله يبحث عن قرينه بعينه في أرجاء  
المقهى لكنه لم يكن هناك.. خاطب شابين كانا منشغلين  
بحديث عاصف

- أين الرجل الذي كان جالساً هنا ؟

- رجل؟.. أي رجل!!؟

- الغريب الذي كان جالساً هنا قبل قليل.

أطلق الشابان ضحكة مدوية وواصل كلامهما دون أن  
يعيرا لما قاله عبد الله اهتماماً.

- لقد كان هنا قبل لحظات.. كأنه ذاب في الدخان.

- حدق فيه شاب كان جالساً في الجهة الثانية.

- عمّ تتكلم؟

اغتبط عبد الله لأن ثمة من هو على استعداد لسماعه  
في هذا المقهى.

- أسأل عن الرجل الذي كان هنا.. الغريب.

- لم يكن هنا رجل غريب.

- بل كان.

- أنت تتصور أشياء، وتهذي طوال الوقت.

- بل أنتم النائمون.

صاح غاضباً فانتهره الشاب:

- أنت تتوهم كعادتك. وهب أنه كان هنا وغادر.. ماذا  
تريد منه؟

- أي شيء.. كل شيء.

قام عبد الله وانسل من كثافة الدخان والضجيج وخرج  
إلى الشارع.. كان المطر يتساقط، وتحت أعمدة النور

أبصر شبحاً يبتعد، ويتلاشى، فحث خطاه ليلحق به.  
( 1995 )

✽✽

# خيول.. خيول

## .1.

في حصار الاخضرار الخفيف الخانق لضوء النيون  
يتحرك إبهامي - بالتناغم مع بقية الأصابع - كما لو أنه  
يرتجف على الحافات الحادة للمستطيلات المرزومة  
المتلاصقة بعناية آلية.

يهمي الرذاذ الأخضر، والأرقام تتسابق في رأسي، ثم  
على الورقة الموضوعه أمامي.

كل شيء يركض نحو الذروة المجنونة.. الرذاذ  
الأخضر والأرقام الفلكية والخيول الراكضة في كل اتجاه.

## .2.

أناط بي مهمة عد النقود واكتشاف الزائف منها..  
خصص لي غرفة صغيرة وخانقة في نهاية متجره الكبير.  
قال: عمك خطير و عليك أن تكون منتبهاً ودقيقاً  
وسريعاً.

سلمني الكدس الأول (ثمانون ألف دينار من فئة

الخمسة والعشرين). شعرت بالإرتباك وأنا أحملق في  
الرزم الخضر الأنيفة على مكثبي.  
قال: هيا، لا تكن بارداً.. سأتيك بعد دقائق بكمية  
أخرى.. عملاؤنا لا يعدون.  
في اليوم الأول لامست أصابعي ربع مليون دينار.  
قال في آخرة النهار:  
- ستزداد خبرة بمرور الوقت.. لم أرد أن أثقل عليك  
في يوم عملك الأول.  
وناولني ورقة خضراء واحدة.. أفردتها ونظرت إلى  
الخيول الثلاثة وهي تجري برشاقة في المرح الأخر.  
خرجت إلى الشارع.. الدنيا يقوؤها ضباب أخضر  
ودوار وأنا عطشان.. يدي في جيبي.. أصابعي قابضة  
على الورقة الخضراء المدعوكة.  
وبغثة تهبأ لي أن الخيول الثلاثة غادرت مرجها  
الأخضر في عاصفة من الصهيل.

### .3.

يوم آخر.. ليلة أخرى.  
ظلمة خضراء كامدة وأزقة غريبة تسحبني إلى  
مناهاتها.. بعضها يسلمني إلى بعضها الآخر، أو هو  
العضو الآلي الغامض، القابع في مكان ما من حجيرات  
الدماغ يتولى المهمة؟  
زقاق بعد آخر.. ينبعث الصهيل من كل ركن.. كأنني  
أمشي بين اسطبلات سجت فيها آلاف الخيول الغاضبة.  
قال لي: للنقود رائحة مدوخة و عليك أن تنتبه.  
قال لي: شيئاً فشيئاً ستعشقها وعندئذ ستأتيك طائفة  
مبدولة.

قال لي: إنها لا ترضخ إلا لأنواع معين من العشاق  
أولئك الذين اكتشفوا أسرارها.

وراح يضحك بصخب، ضحكة منغمة متكسرة، حادة،  
ممتدة، لا تنقطع.. صوت هائل يتدفق من حنجرة قوية،  
مدهونة، يلاحق سيلاً من الصهيل ويمتزج به.. الضحك  
والصهيل إذ يمتزجان يعصفان بي فأندرج في فضاء من  
الأخضر المحققن الجاثم على الأشياء.

#### .4.

قال لي: الدنيا مسالك.. أنت اخترت مسلكاً وأنا  
اخترت مسلكاً آخر، وها نحن ذا نلتقي في هذه الحجرة من  
أجل أن نعيش.

قال لي: علينا أن نعمل ساعات إضافية.. إنها فرصة  
قد لا تتكرر أبداً.

انحسر الليل والنهار وتلاشياً.. صار الزمن امتداداً  
أخضر بلا علامات وزوبعة خضراء ونحن - أنا وهو -  
مشدودان إلى هذه البقعة ندور، وذاك قدرنا حول هذا  
المحور، غير أن مرتفعات عصية من الرزم الخضمر  
تفصلنا.. هوة الأسئلة والمفترق المخيف والساعات الغربية  
التي تشبه ظلام الحلم.

قلت في سرّي: أي جحيم تلك المسافة بيني وبينك.

وكنت أخشى أن يقرأ ذلك في عيني.

الأرض تميد بي.. الجدران العالية، والهيكل تتمايل  
كما لو أنها خائضة في رقصة وحشية، والصهيل القاسي  
يحفر في الرأس.. أضغط صدغي بأصابعي في محاولة



لإعادة التوازن، غير أن الصهيل يشتد.. الألم الجامح  
يشتعل في عيني.. يفتح فضاء خلف الجبين ليرسب إحساساً  
بالغثيان ينحدر أسفل فأسفل، ثم تقدم آلاف الخيول من  
الأرجاء كافة.. تلج عبر ممرات المملكة العصبية إلى  
القاع المظلم البعيد.. آلاف الخيول بحوافر معدنية لها رنين  
نازف تستوطنني.. تحيل زمني إلى تيه وصدى.

صهيل متصل يشقق رأسي.. خيول أخرى تجيء..  
يختلط صهيلها بهدير السيارات ودوي أبواقها ولغط المارة..  
يبدو أن لا أحد يسمع هذه الأصوات المهاجمة سواي..  
جسدي يصطدم بالأجساد.. لا أرى منهم سوى أشياء كالحة  
تتحرك.. لا ألوان، كأنه حلم قائم.. تمهيد لكابوس.. خطواتي  
تتعرش.. أنا على الرصيف أو في وسط الشارع.. بين  
السيارات أو في نفق يعج بالناس.. ناس بلغة غريبة.. لا أفقه  
مما يقولون كلمة واحدة.. مجرد أصوات كالنقيق.. كأنهم  
يشتمون.. وأرى.. ماذا أرى؟!.. العالم الآن، لا شيء سوى  
عماء أخضر وصهيل.

## .5.

اقتربت من البيت.. فاجأني هدوء عميق مفزع ضيق  
علي الخناق.. كأنني أصبت بالصمم. وكان التعب مثل  
أخطبوط رخو يقبض على مفاصلي ويحتوي ذهني.  
على عتبة البيت كدت أسقط.. وقفت وأغمضت  
عيني.. خيل لي أنني أسمع صهياً بعيداً، منذراً راح  
يخترق كتلة الهدوء الثقيلة حولي.. شعرت بالجزع.. دلفت  
إلى البيت وأنا خائف.

## .6.

بعد الظهر جاءني بعمارات شاهقة من الرزم.

همس: إنها ضربة الحظ القاضية.

وجلس قبالي:

- سأساعدك:

وبدأنا .. قلت:

- الحر خائق كأن لا هواء.

قال: تحمل.. أجرك لهذا اليوم مائة دينار.

وجدتني سريعاً .. أسرع من أية ساعة مضت مذ  
استلمت وظيفتي كأنني ذراع بمفاصل معقدة في ماكينة  
هائلة. وراحت الرزم تعبر من الشمال إلى اليمين والأرقام  
المخيفة تتصاعد على ظهر الورقة التي أضعها أمامي،  
والمروحة تهدر.. هديرها الشيطاني محض صوت ليس  
إلا، وكلما انتفخت الأرقام على الورقة تضخم الصوت  
وشح الهواء.

العرق يعبر التضاريس المنتفخة لرقبته الوردية في  
مجار لماعة تختفي وراء ياقته المتسخة.. قال لي ذات مرة:

- من يعمل ليل نهار، لن يجد وقتاً حتى للنظافة.

العرق يدب في جسدي.. قطراته كأنها حشرات  
دقيقة.. أدعك قميصي لأسحقها على صدري وبطني فتكر  
من جديد. أحسست بالجفاف.. كرعت كأساً من الماء.. لم  
يكن بارداً.. كان مرأً وخرجت الحشرات، كانت  
كالحشرات، تدب على جسدي فجعلت أدعكها من دون  
جدوى.

هواء المروحة لم يمنع قطرة عرق حامضة تسالت  
إلى عيني.. كانت جمرة صغيرة تبيث الألم.. أغلقت جفوني  
بقوة.. كنت على حافة الهاوية بساقين واهنتين.. تناهى إلي  
سهيل فاجع.. رأيت النار تشب في إسطلب مقفل والخيول  
المذعورة تحاول عبثاً تحطيم النوافذ.. لم يكن ثمة باب.

ثم، باغتني الرجل قائلاً:

- هذا مليون آخر.  
وألقي كيساً عتيقاً متسخاً من الخام الأبيض أمامي  
وخرج.. أخفيت وجهي بكفي وأنا على وشك البكاء.  
بصعوبة رفعت جذعي، وكنت أترنح حين اجتزت  
باب المتجر.. صاح بي، فشتمته.

## .7.

في الشارع.. بين بشر كالدمى هب الصهيل عاتياً،  
كاسحاً مثل ريح لا معنى لها، ولا جدوى من عنفها.  
هكذا فقط، دوامة هادرة اجتاحت المدينة من أقصاها  
إلى أقصاها، ووقع سنابك راح يدوي في المساء الكسيح.  
تكاثف الضباب الأخضر، الغامق، المعتم وانكشفت  
رؤيا الكابوس.. ملايين الخيول صارت تغادر باب المتجر  
الذي هربت منه، وملايين أخرى أعقبها من أبواب  
المتاجر المفتوحة على الشارع كالأشداق.. ملايين الخيول  
المخبولة تدوس المارة المذهولين، الخائضين في زعر  
الصراخ، وتسحق كل شيء.

( 1993 )



## في أقصى الفردوس

### احتمال غير مؤكد (1)

بمحاذاة السياج الشجري نقل خطواته.. بدا حذراً كما لو أنه كان يتوقع أمراً ما، لا عهد له به، سيحصل.  
الرحاب النادر لأزهار الجهنمية، والرذاذ الشذي للرازقي والأس بأناقته المشدبة الراسخة.. هذه الأشياء كلها غمرته بحزن نائح، وجعلته يرمي سيجارته أرضاً ويدوسها، ويركل حصاة صغيرة كانت على طريقه. وفي ثنية ماء، جد غائرة، من ثنيات روحه، تآلق ضوء مؤس باهر لجزء من الثانية لما أن الباب - باب الحديقة الخشبي - وهو يدفعه ليدلف.. ثم انطفأ.. انطفأ الضوء، وسبحت ثنيات الروح في قتامة موحشة، فألقى نفسه على فراش كثيف من العشب، تحاصره سكينه ساعة العصر فحدس؛ أن لا أحد دخل هذه الحديقة منذ زمن طويل.

مشى نحو المقعد الأثير - مقعدهما - الذي يكاد يكون ذاكرة أنبل أسرارهما، يوم كانا يحتميان، من أذى العالم بسور من أغصان الليمون، وبياركان الحياة بالقصائد والقبل والضحكات.

أحنى رأسه ليتحاشى فرعاً نافرماً كان يعيقه حتماً، فتنلمت، علي حين فجأة، أطرافه، وأمسك به ما يشبه الرعب حين أبصر امرأة، بيدها ضلع مكسور من أضلاع

المقعد - مقعدهما - وقد جلست عليه.

أفكار مضطربة تسارعت في رأسه الذي بقي على انحناءته (- من تكون هذه المرأة؟ ولماذا جاءت إلى هنا؟ ولماذا كسرت ضلع المقعد؟).. ووجد نفسه أمام خيارين؛ إما أن يتراجع ويترك المرأة لشأنها أو أن يقترب ليواسمها ولا يدري ما الذي أرغمه على خيار الاقتراب. حدقت فيه وقالت:

- هكذا إذن، بعد أن تأخرت طويلاً، وجعلتني أحطم هذا المقعد.. ولو لم تأت..

ماذا؟!..

- اجلس.

أغمض عينيه وفتحهما.. تفرس في وجهها، وتأكد من أنه لم ير هذا الوجه من قبل.. تلفت حوله، وشاهد استبداد نور النهار، والفوضى الودودة للألوان، وفكر في ما إذا كان يحلم الآن، أم أنه يحيا لحظات صحو حقيقية؟ غير أنه ظل يتساءل في دخيلته؛ ((من تكون هذه المرأة، وهل تعرفه حقاً؟ أم أنها مجنونة؟))

قالت له: تبدو مثل مجنون.

قالت له: لِمَ لَمْ تحلق شعر رأسك ولحيتك؟

قالت له: وما هذه الأسماك التي ترنديها؟

قالت له: وأين هي حقيبة أوراقك التي لم تكن تفارقك؟

قالت له: والقصيدة.. قصيدتك الأخيرة.. هل أتممتها؟

وبقي هو ساكناً، لا ينبس بكلمة.

أحس بصدع يشطره في الأعماق، ويسلمه لحالة من فقدان الوعي.. ومرّ وقت غير قصير قبل أن يهز رأسه

ويتمتم:

من أنت؟ من تكونين؟

وقفت، وفخرت فاهاً، وارتسم على محياها جمود  
مفرع، فتهياً له أنها ستصفعه، أو ستضربه بضلع المقعد  
المكسور على رأسه.

- أنا لا أعرفك سيدتي.

وثبت عليه مثل لبوة فأمسك بها.

هنا حدث شيء محير. فبعد أن استيقظ يحيط به  
الظلام وبمضه البرد والألم والجوع، رأى أن من  
المستحيل أن يتيقن من حقيقة ما جرى.

كان يشعر بالخوف، وبالرغبة في الابتعاد.

## احتمال غير مؤكد (2)

كسرت المرأة غصن شجرة ليمون لما سمعت وقع  
أقدام محترسة تقترب، وتساءلت في سرها، ( مَنْ من حقه  
دخول هذا المكان بعد رحيله؟ من بإمكانه أن يجرؤ على  
اقتحام هذا المحراب الذي صنعه معاً طوال سنوات؟ ).

حدقت فيه.. كان وجهه ملتبساً، تمنحه أقراص الضوء  
المتلعبة بهاءً ووحشية.

قالت: ارجع.

قال: ينبغي أن تفهمي.

قالت: من تكون أيها الأبله.

قال: تبدين مثل مجنونة.

صاحت: أنت المجنون.

قال: أنظري إلى أسمالك هذه، وشعرك الذي لم  
تمشطيه.. أنا أفهم....

قالت: أخرج، قبل أن أجعل دمك يسيل.

قال: لقد جئت من أجلك.. أنا نادم.

قالت: من أنت؟

وانقضت عليه وتشابكا.

لا شك أن شيئاً ما ترحزح عن موضعه، وتغيرت  
الخارطة.. خارطة وجودهما الخفية، فغابت عن العالم  
لحين من الدهر، لكنها عندما استفاقت على أنين الأرض  
الباردة، وخشخشات النجوم وهي تغمزها من بين أوراق  
الليمون، كانت مفعمة بالغبطة، والرغبة في اليكاء، تشعر  
في أقصى روحها بحضور الفردوس.. الفردوس الساحر  
والعصي.. الفردوس المحال.

تستحضر، الأونة، كسراً من أنفاس عفة، وهيجان  
بهيج.. شيئاً أثماً وقدسياً عنيفاً وعميقاً وناعماً ومباركاً،  
ومنفتحاً على فسحة مظلمة، معتمة، وهو بعيد بُعداً لا يسيل  
للوصل إليه، وقريب، غاية في القرب، حتى لا يمكن  
رؤيته البتة.

تتمدد على العشب، وتقرر البقاء.

## احتمال من الجائز تأكيده:

نادته : نور

ركض نور محاذة السياج الشجري.. رأته جزءاً من  
رونق أزهار الجهنمية، وشذا الرازقي، وأناقة الأس وحين  
كررت النداء:

- نور.

عثر نور بحصاة صغيرة وسقط ليجد نفسه فجأة، بين  
ذراعي رجل، غمرته أنفاسه الحارة فبدا قلقاً غير أنه لم  
يعترض. أما هي فوقفت بارتباك ظاهر تحدج الرجل، ولا

تستطيع الكلام، حتى إذا نطقت أخيراً، متلثمة.  
- كنت أعرف أنك ستجيء.  
ضحك بصخب، ثم طاف في عينيه حزن صافٍ  
وقال:  
- أرجو أن يكون حدسك في محله.  
قالت: - إنك الآن أمامي.. وبيننا نور.  
وكان نور ما يزال على ذراعيه، مستكيناً، حائراً،  
فقال بنبرة مشروخة، وهو يضع الطفل أرضاً.  
- هذا، إذا كنت أنا.. هذا الواقف أمامك.

( 2000 )





## الفهرست

5.....	المحطات
5.....	1. محطة الشروق
9.....	2. محطة الشقائق
16.....	3. محطة الرغبة
20.....	4. محطة الثلج
24.....	5. محطة الغياب
31.....	بيت العناكب
56.....	العجر لن يجيئوا ثانية
67.....	رجل الحجر
76.....	تحريض
80.....	أحاييل المساء
88.....	ليلة الغريب
93.....	خيول.. خيول
99.....	في أقصى الفردوس
104.....	الفهرست

٤٥٤٤٤

## \* سعد محمد رحيم

\* من مواليد العراق 1957.

### \* الإصدارات:

- رصاص العمق الهادئ - رواية / 1985.
- الصعود إلى برج الجوزاء - قصص / 1989 - فازت بالجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة والإعلام في العراق.
- ظل التوت الأحمر - قصص / 1993 - فازت بالجائزة الثالثة في مسابقة وزارة الثقافة والإعلام في العراق.
- هي والبحر / قصص / 2000.
- عُسق الكراكي / رواية / 2000 - فازت بجائزة الإبداع الروائي في العراق لسنة 2000.
- المحطات القصية - قصص / 2004 .

\*\*\*

- 105 -

# مكتبة ماجد الحيدر

<https://www.facebook.com/pages/كتب-كتب-كتب>